

فتوح الغيب

للقطب الرباني سيد عبدالقادر الجيلاني

مع شرح ابن تيمية

رسالة في شرح كلمات من
فتوح الغيب

بسم الله الرحمن الرحيم
 الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين
 سيدنا و مولانا حبيبنا و قرة أعيننا محمد و على آله و صحبه أجمعين
 و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
 فتوح الغيب
 للقطب الرباني الشيخ محي الدين عبدالقادر الجيلاني
 رضي الله عنه و أرضاه
 مقدمة المؤلف

قال الشيخ عبد الرزاق ولد المؤلف : قال والدي رضي الله تعالى عنه مؤيد الأئمة سيد الطوائف
 أبو محمد محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني الصديقي، ابن أبي صالح موسى
 جنكى دوست ابن الإمام عبد الله ابن الإمام يحيى الزاهد ابن الإمام محمد ابن الإمام داود ابن
 الإمام موسى ابن الإمام عبد الله ابن الإمام موسى الجون ابن الإمام عبد الله المحض ابن الإمام
 الحسن المثنى ابن الإمام أمير المؤمنين سيدنا الحسن السبط ابن الإمام الهمام أسد الله الغالب،
 فخر بني غالب، أمير المؤمنين سيدنا علي ابن أبي طالب، كرم الله وجهه، ورضي عنه و عنهم
 أجمعين أمين :

الحمد لله رب العالمين أولاً و آخراً و ظاهراً و باطناً، عدد خلقه و مداد كلماته، و زنة عرشه،
 و رضاء نفسه، و عدد كل شفع و وتر، و رطب و يابس في كتاب مبين، و جميع ما خلق ربنا و ذراً
 و براً، خالق بلا مثال أبداً سرمداً طيباً مباركاً، الذي خلق فسوى، و قدر فهدى، و أمات و أحى،
 و أضحك و أبكى، و قرب و أذن، و أرحم و أخزى، و أطعم و أسقى، و أسعد و أشقى، و منع و أعطى،
 الذي بكلمته قامت السبع الشداد، و بها رست الرواسي و الأوتاد و استقرت الأرض المهادة، فلا
 مقنوطاً من رحمته، و لا مأموناً من مكره و غيرته و إنفاذ أفضيته و فعله و أمره، و لا مستكفاً عن
 عبادته، و لا مخلواً من نعمته، فهو المحمود بما أعطى، و المشكور بما زوى، ثم الصلاة على
 نبيه المصطفى محمد صلى الله عليه و سلم، الذي من اتبع ما جاء به اهتدى و من صدف عنه
 ضل و ارتدى، النبي الصادق المصدوق، الزاهد في الدنيا، الطالب الراغب في الرفيق الأعلى،
 المجتبي من خلقه، المنتخب من بريته، الذي جاء بالحق بمحبته، زهق الباطل بظهوره، و أشرقت
 الأرض بنوره.

ثم الصلوات الوافيات، و البركات الطيبات، الزاكيات المباركات عليه ثانياً و على آله الطيبين،
 و أصحابه و التابعين لهم بإحسان، الأحسنين لربهم فعلاً، الأقومين له قِيلاً، و الأصوبين إليه طريقاً
 و سبيلاً، ثم تضرعنا و دعأؤنا و رجو عننا إلى ربنا، و منشئنا و خالقنا و رازقنا، و مطعمنا و مسقينا،
 و نافعنا و حافظنا، و كالتنا و محيينا، و الذاب و الدافع عنا جميع ما يؤذينا و يسوءنا، كل ذلك برحمته
 و تحننه و فضله و متنه بالحفظ الدائم في الأقوال و الأفعال في السر و الإعلان، و الإظهار و الكتمان
 و الشدة و الرخاء و النعمة و البأساء و الضراء، إنه فعال لما يريد، و الحاكم بما يشاء، العالم بما

يخفى، المطلع على الشؤون والأحوال، من الزلات والطاعات والقربات، السامع للأصوات، المجيب للدعوات، لمن يشاء من غير تنازع وتردد.

أما بعد : فإن نعم الله علي كثيرة متواترة، في آناء الليل وأطراف النهار والساعات واللحظات والخطرات وجميع الحالات، كما قال عز وجل : {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا}. إبراهيم34. وقوله تعالى : {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ}. النحل53. فلا يدان لي ولا جنان ولا لسان في إحصائها وأعدادها، فلا يدركها التعداد ولا تضبطها العقول والأذهان، ولا يحصيها الجنان ولا يعبرها اللسان. فمن جملة ما مكن عن تعبيرها اللسان، وأظهرها الكلام وكتبها البنان، وفسرها البيان، كلمات برزت وظهرت لي من فتوح الغيب فحلت في الجنان، فأشغلت المكان فأنتجها وأبرزها صدق الحال، فتولى إبرازها لطف المنان، ورحمة ربّ الأنام في قالب صواب المقال، لمريدي الحق والطلاب.

المقالة الأولى فيما لا بد لكل مؤمن

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمر يمتثله، ونهي يجتنبه، وقدر يرضى به، فأقل حالة المؤمن لا يخلو فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة، فينبغي له أن يلزم همها قلبه، وليحدث بها نفسه، ويؤاخذ الجوارح بها في سائر أحواله.

المقالة الثانية في التواصي بالخير

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : اتبعوا ولا تبندعوا، وأطيعوا ولا تمرقوا، ووحدا ولا تشركوا، ونزهوا الحق ولا تتهموا، وصدقوا ولا تشكوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تنفروا، واسألوا ولا تسأموا، وانتظروا وترقبوا ولا تياسوا، وتواخوا ولا تعادوا، واجتمعوا على الطاعة ولا تتفرقوا، وتحابوا ولا تباغضوا، وتطهروا عن الذنوب وبها لا تدنسوا ولا تتلطفوا، وبطاعة ربكم فتزينا، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا، وعن الإقبال عليه فلا تتولوا، وبالتوبة فلا تسوفوا، وعن الاعتذار إلى خالقكم في آناء الليل وأطراف النهار فلا تملوا، فلعلكم ترحمون وتسعدون، وعن النار تبعدون، وفي الجنة تحبرون، وإلى الله توصلون، وبالنعيم واقتضاض الأبقار في دار السلام تشتغلون، وعلى ذلك تخلصون، وعلى النجائب تركيبون، وبحور العين وأنواع الطيب وصوت القيان مع ذلك النعيم تحبرون، ومع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ترفعون.

المقالة الثالثة في الابتلاء

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا ابتلي العبد ببليّة تحرك أولاً في نفسه بنفسه, فإن لم يتخلص منها استعان بالخلق كالسلاطين وأرباب المناصب وأرباب الدنيا وأصحاب الأحوال وأهل الطب في الأمراض والأوجاع, فإن لم يجد في ذلك خلاصاً رجع إلى ربّه بالدعاء والتضرع والثناء. ما دام يجد بنفسه نصرة لم يرجع إلى الخلق, وما دام يجد به نصرة عند الخلق لم يرجع إلى الخالق, ثم إذا لم يجد عند الخلق نصرة استطرح بين يديه مديماً للسؤال والدعاء والتضرع والثناء والافتقار مع الخوف والرجاء, ثم يعجزه الخالق عزّ وجلّ عن الدعاء, ولم يجبه حتى ينقطع عن جميع الأسباب, فحينئذ ينفذ فيه القدر ويفعل فيه الفعل, فيفني العبد عن جميع الأسباب والحركات, فيبقى روحاً فقط, فلا يرى إلا فعل الحق فيصير موقناً موحداً ضرورة يقطع أن لا فاعل في الحقيقة إلا الله لا محرك ولا مسكن إلا الله ولا خير ولا ضر ولا نفع ولا عطاء ولا منع, ولا فتح ولا غلق, ولا موت ولا حياة, ولا عزّ ولا ذل إلا بيد الله فيصير في القدر كالطفل الرضيع في يد الظئر والميت الغسيل في يد الغاسل والكرة في صولجان الفارس, يقلب ويغير ويبدل, ويكون ولا حراك به في نفسه ولا في غيره فهو غائب عن نفسه في فعل مولاه, فلا يرى غير مولاه وفعله, ولا يسمع ولا يعقل من غيره إن بصر وإن سمع وعلم, فلكلامه سمع, ولعلمه علم, وبنعمته تنعم, وبقربه تسعد, وبتقريبه تزيّن وتشرف, وبوعده طاب وسكن, به اطمأن, وبحديثه أنس, وعن غيره استوحش ونفر, وإلى ذكره التجأ وركن, وبه عزّ وجلّ وثق وعليه توكل, وبنور معرفته اهتدى وتقمص وتسربل, وعلى غرائب علومه اطلع, وعلى أسرار قدرته أشرف, ومنه سمع ووعى, ثم على ذلك حمد وأثنى وشكر ودعا.

المقالة الرابعة في الموت المعنوي

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا مت عن الخلق قيل لك رحمك الله وأماتك عن الهوى، وإذا مت عن هواك قيل رحمك الله وأماتك عن إرادتك ومناك، وإذا مت عن الإرادة قيل رحمك الله وأحياك حياة لا موت بعدها، وتغنى غنى لا فقر بعده، وتعطى عطاء لا منع بعده، وتراح براحة لا شقاء بعدها، وتنعم بنعمة لا بؤس بعدها، وتعلم علماً لا جهل بعده، وتؤمن أمناً لا خوف بعده، وتسعد فلا تشقى، وتعز فلا تذل، وتقرب فلا تبعد، وترفع فلا توضع، وتعظم فلا تحقر، وتطهر فلا تدنس، لتحقق فيك الأمانى، وتصدق فيك الأقاويل، فتكون كبيرياً أحمر فلا تكاد ترى، وعزيراً فلا تماثل، وفريداً فلا تشارك، ووحيداً فلا تجانس، فرداً بفرد ووتراً بوتر، وغيب الغيب، وسر السر، فحينئذ تكون وارث كل نبي وصديق ورسول. بك تختم الولاية وإليك تصير الأبدال وبك تتكشف الكروب، وبك تسقى الغيوب، وبك تنبت الزروع، وبك يدفع البلاء والمحن عن الخاص والعام وأهل الثغور والراعي والرعايا، والأئمة والأمة وسائر البرايا، فتكون شحنة البلاد والعباد، فتنتقل إليك الرجل بالسعي، والرجال والأيدي بالبذل والعطاء والخدمة بإذن خالق الأشياء في سائر الأحوال، والألسن بالذكر الطيب والحمد والثناء وجمع المجال، ولا يختلف فيك اثنان من أهل الإيمان، يا خير من سكن البراري وجال بها { ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }. الحديد 21.

المقالة الخامسة

في بيان الدنيا و الحث على عدم الالتفات إليها

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا رأيت الدنيا في يدي أربابها بزینتها وأباطيلها وخداعها ومصائدنا وسمومها القتالة، مع لين مس ظاهرها، وضراوة باطنها وسرعة إهلاكها، وقتلها لمن مسها واغتر بها وغفل عن وليها وعيرها بأهلها ونقض عهدنا، فكن كمن رأى انساناً على الغائط بالبراز بادية سواته وفائحة رائحته، فإنك تغض بصرك عن سواته، وتسد أنفك من رائحته ومنتنه، فهكذا كن في الدنيا، إذا رأيتها غض بصرك عن زينتها، وسد أنفك عما يفوح من روائح شهواتها ولذاتها، فتنجو منها ومن آفاتنا، ويصل إليك قسمك منها وأنت مهناً، قال الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم : { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ }. طه 131.

المقالة السادسة في الفناء عن الخلق

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : افن عن الخلق بإذن الله تعالى, عن هواك بأمر الله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } . المائدة 23. وعن إرادتك بفعل الله تعالى. وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى, فعلامة فنائك عن خلق الله تعالى انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم واليأس مما في أيديهم, وعلامة فنائك عن هواك ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع والضرر, فلا تحرك ولا تعتمد عليك ولا لك ولا تذب عنك ولا تنتصر لنفسك, تكل ذلك كله إلى الله تعالى لأنه تولاه أولاً فيتولاه آخرأ, كما كان موكولاً إليه في حال كونك مغيباً في الرحم, وكونك رضيعاً طفلاً في مهدك, وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط, ولا يكون لك غرض, ولا يبقى لك حاجة ولا مرام, فإنك لا تريد مع إرادة الله سواها, بل يجري فعل الله فيك, فتكون أنت عند إرادة الله وفعله ساكن الجوارح مطمئن الجنان منشرح الصدر منور الوجه عامر البطن غنياً عن الأشياء بخالقها, تقلبك يد القدرة, ويدعوك لسان الأزل, ويعلمك ربُّ المَلَل, ويكسوك أنواراً منه والحل, وينزلك من أولي العلم الأول, فتكون منكسراً أبداً, فلا يثبت فيك شهوة وإرادة كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع وكدر, فتنقى عن أخلاق البشرية, فلن يقبل باطنك شيئاً غير إرادة الله عزَّ وجلَّ, فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات, فيرى ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم, وهو فعل الله وإرادته حقاً في العالم, فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية وأزيلت شهواتهم الطبيعية فاستؤنفت لهم إرادة ربانية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (حُبب إليَّ من دنياكم ثلاث : الطيب , والنساء , وجعلت قرّة عيني في الصلاة) فأضيف ذلك بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقاً بما أشرنا, وتقدم. قال الله تعالى في حديثه القدسي : "أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي" فإن الله تعالى لا يكون عندك حتى تنكسر جملة هواك وإرادتك, فإذا انكسرت ولم يثبت فيك شيء ولم يصلح فيك شيء, أنشأك الله فجعل فيك إرادة, فتريد بتلك الإرادة, فإذا صرت في الإرادة المنشأة فيك, كسرها الربُّ تعالى بوجودك فيها, فتكون منكسر القلب أبداً, فهو لا يزال يجدد فيك إرادة ثم يزيلها عند وجودك فيها هكذا إلى أن يبلغ الكتاب أجله, فيحصل اللقاء, فهذا هو معنى "عند المنكسرة قلوبهم من أجلي" ومعنى قولنا عند وجودك فيها هو ركونك وطمانينتك إليها. قال الله تعالى في حديثه القدسي , الذي يرويه صلى الله عليه وسلم : (لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه , فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به , وبصره الذي يبصر به , ويده التي يبطش بها , ورجله التي يمشي بها) وفي لفظ آخر "فبي يسمع , وبي يبطش وبي يعقل". وهذا إنما يكون في حالة الفناء لا غير, فإذا فنيت عنك وعن الخلق, والخلق إنما هو خير وشر, فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرهم بقي الله وحده كما كان, ففي قدر الله خير وشر, فيؤمنك من شر القدر ويغرقك في بحار خيره, فتكون وعاء كل خير, ومنبعاً لكل نعمة وسرور وحبور وضياء أمن وسكون, فالفناء والمنى والمبتغى والمنتهى حد ومرد ينتهي إليه مسير الأولياء, وهو الاستقامة التي طلبها من تقدم من الأولياء والأبدال أن يفنوا عن إرادتهم وتبدل بإرادة الحق عزَّ وجلَّ, فيريدون بإرادة الحق أبداً إلى الوفاة, فلهذا سموا أبدالاً رضي الله عنهم, فذنوب هؤلاء السادة أن يشركوا إرادة الحق بإرادتهم على وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة,

فيدركهم الله تعالى برحمته بالتذكرة واليقظة، فيرجعوا عن ذلك ويستغفروا ربهم، إذ لا معصوم عن الإرادة إلا الملائكة، عصموا عن الإرادة، والأنبياء عصموا عن الهوى، وبقية الخلق من الإنس والجن المكلفين لم يعصموا منها غير أن الأولياء بعضهم يحفظون عن الهوى، والأبدال عن الإرادة، ولا يعصمون منهما على معنى يجوز في حقهم الميل إليهما في الأحيان، ثم يتداركهم الله عز وجل باليقظة برحمته.

المقالة السابعة

في إذهاب غم القلب

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أخرج من نفسك وتتح عنها، وانعزل عن ملكك وسلم الكل إلى الله، فكن بوابه على باب قلبك، وامتلأ أمره في إدخال من يأمرك بإدخاله، وAntه بنهيه في صد من يأمرك بصدده، فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه، فأخرج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعتة في الأحوال كلها، وإدخاله في القلب بمتابعتة وموافقته، فلا ترد إرادة غير إرادته، وغير ذلك منك تمن وهو وادي الحمقى، وفيه حتفك و هلاكك وسقوطك من عينه وحجابه عنك، أحفظ أبدأ أمره، وAntه أبدأ بنهيه، وسلم لمقدوره، ولا تشركه بشيء من خلقه، فأرادتك وهواك وشهواتك كلها خلقه، فلا ترد ولا تهوى ولا تشته كيلا تكون مشركاً. قال الله تعالى : { فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } .
الكهف110.

ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب، بل هو متابعتك هواك، وأن تختار مع ربك شيئاً سواه من الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها، فما سواه عز وجل غيره، فإذا ركنك إلى غيره فقد أشركت به عز وجل غيره، فاحذر ولا تركز، وخف ولا تأمن، وفتش فلا تغفل فتطمئن، ولا تصف إلى نفسك حالاً ومقاماً، ولا تدع شيئاً من ذلك، فإن أعطيت حالاً أو أقيمت في مقام فلا تختار شيئاً واحداً من ذلك، فإن الله { كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ } .الرحمن29. في تغيير وتبديل، وإنه يحول بين المرء وقلبه، فيزيلك عما أخبرت به، ويغيرك عما تخيلت ثباته وبقاءه، فتخجل عند من أخبرته بذلك، بل أحفظ ذلك فيك ولا تعده إلى غيرك فإنه كلي الثبات والبقاء، فتعلم أنه موهبة وتساءل التوفيق للشكر واستر رؤيته وإن كان غير ذلك كان فيه زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأديب. قال الله عز وجل : { مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .البقرة106. فلا تعجز الله في قدرته، ولا تنتهمه في تقديره ولا تدبيره، ولا تشك في وعده، فليكن لك في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، نسخت الآيات والصور النازلة عليه المعمولة بها المقروءة في المحاريب المكتوبة في المصاحف، ورفعت وبدلت وأثبت غيرها مكانها، ونقل صلى الله عليه وسلم إلى غيرها، هذا في ظاهر الشرع، وأما في الباطن والعلم والحال فيما بينه وبين الله عز وجل فكان يقول : (إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم

سبعين مرة) ويروى (مائة مرة) وكان صلى الله عليه وسلم ينقل من حالة إلى أخرى ويسير به في منازل القرب وميادين الغيب، ويغير عليه خلع الأنوار، فتبين الحالة الأولى عند ثانيها ظلمة ونقصاناً وتقصيراً في حفظ الحدود، فيلقن الاستغفار لأنه أحسن حال العبد، والتوبة في سائر الأحوال لأن فيها اعترافه بذنبه وقصوره، وهما صفتا العبد في سائر الأحوال، فهما وراثتة من أبي البشر آدم عليه السلام إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم حين اعترت صفاء حاله ظلمة النسيان للعهد والميثاق، وإرادة الخلود في دار السلام، ومجاورة الحبيب الرحمن المنان، ودخول الملائكة الكرام عليه بالتحية والسلام، فوجد هناك مشاركة إرادته لإرادة الحق، فانكسرت لذلك تلك الإرادة، وزالت تلك الحالة، وانعزلت تلك الولاية، فانهبطت تلك المنزلة وأظلمت تلك الأنوار وتكدر ذلك الصفاء، ثم تنبه وذكر صفي الرحمن، فعرف الاعتراف بالذنب والنسيان، ولقن الإقرار فقال : { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } . الأعراف 23. فجاءت أنوار الهداية وعلوم التوبة ومعارفها، والمصالح المدفونة فيها ما كان غائباً من قبل، فلم تظهر إلا بها، فبدلت تلك الإرادة بغيرها والحالة الأولى بأخرى، وجاءته الولاية الكبرى والسكون في الدنيا ثم في العقبى، فصارت الدنيا له ولذريته منزلاً، والعقبى لهم موئلاً ومرجعاً وخذلاً، فلك برسول الله وحبيبه المصطفى وأبيه آدم صفي الله عليهم الصلاة والسلام عنصر الأحابب والأخلاء أسوة في الاعتراف بالقصور والاستغفار في الأحوال كلها

المقالة الثامنة في التقرب إلى الله

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا كنت في حالة لا تختار غيرها أعلى منها ولا أدنى، فإذا كنت على باب الملك لا تختار الدخول إلى الدار حتى تدخل إليها جبراً لا اختياراً، وأعني بالجبر أمراً عنيفاً متأكداً متكرراً، ولا تكف بمجرد إذن بمجرد الدخول، لجواز أن يكون ذلك منكراً وخديعة من الملك، لكن اصبر حتى تجبر على الدخول فتدخل الدار جبراً محضاً وفضلاً من الملك، فحينئذ لا يعاقب الملك على فعله، إنما تتعرض العقوبة لك لشؤم تخيرك وشرك، وقلة صبرك وسوء أدبك، وترك الرضي بحالتك التي أقمت فيها، فإذا حصلت فكن مطرقة غاضاً لبصرك متأدباً، محافظاً لما تؤمر به من الشغل والخدمة فيها غير طالب للترقي إلى الذروة العليا. قال الله عز وجل : { وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ } . طه 131. فهذا تأديب منه عز وجل لنبيه المختار صلى الله عليه وسلم في حفظ الحال والرضا بالعباءة بقوله : { وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى } . طه 131. أي ما أعطيتك من الخبر والنبوة والعلم والقناعة والصبر وولاية الدين، والعروة فيه أولى مما أعطيت وأحرى، فالخير كله في حفظ الحال والرضا بها وترك الالتفات إلى ما سواها، لأنه لا يخلو إما أن يكون قسمك أو قسم غيرك، أو أنه لا قسم لأحد بل أوجده الله فتنة، فإن كان قسمك وصل إليك شئت أم أبيت فلا ينبغي أن يظهر منك سوء الأدب والشه في طلبه، فإن ذلك غير محمود في قضية العلم والعقل، وإن كان قسم غيرك فلا تتعب فيما لم تناوله ولا يصل إليك أبداً، وإن كان

ليس بقسم لأحد بل هو فتنة فكيف يرضى للعاقل ويستحسن أن يطلب لنفسه فتنة ويستجلبها لها، فقد ثبت أن الخير كله والسلامة في حفظ الحال، فإذا رقيت إلى الغرفة ثم إلى السطح فكن كما ذكرنا من الحفظ والإطراق والأدب، بل يتضاعف ذلك منك، لأنك أقرب إلى الملك وأدنى بالخطر، فلا تتمم الانتقال منها إلى أعلى منها ولا إلى أدنى، وثباتها وبقائها، ولا تغير وصفها وأنت فيها، ولا يكون لك اختيار ألبته، فإن ذلك كفر في نعمة الحال والكفر يحل بصاحبه الهوان في الدنيا والآخرة فاعمل على ما ذكرناه أبداً حتى ترقى إلى حالة تصير لك مقاماً تقام فيه فلا تزال عنه، فتعلم حينئذ أنه موهبة ظهر بيانها فتمسكه ولا تنزل، فالأحوال للأولياء والمقامات للأبدال والله يتولى هداك.

المقالة التاسعة

في الكشف والمشاهدة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : يكشف للأولياء والأبدال من أفعال الله ما يبهر العقول ويخرق العادات والرسوم فهي على قسمين : جلال وجمال، فالجلال والعظمة يورثان الخوف المقلق والوجل المزعج، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح، كما روي عن أن النبي صلى الله عليه وسلم " كان يسمع من صدره أزيز كأزيز المرجل في الصلاة من شدة الخوف " لما يرى من جلال الله عزَّ وجلَّ وينكشف له من عظمته، ونقل مثل ذلك عن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه وعمر الفاروق رضي الله عنه.

أما مشاهدة الجمال : فهو التجلي للقلوب بالأنوار والسرور والألطف، والكلام اللذيذ والحديث الأنيس، والبشارة بالمواهب الجسام والمنازل العالية، والقرب منه عزَّ وجلَّ مما سيئول أمرهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وجف به القلم من أقسامهم في سابق الدهور فضلاً منه ورحمة، وإثباتاً منه لهم في الدنيا إلى بلوغ الأجل وهو الوقت المقدور، لئلا تفرط بهم المحبة من شدة الشوق إلى الله تعالى فتنفطر مراتبهم، فيهلكون ويضعفون عن القيام بالعبودية إلى أن يأتيهم اليقين الذي هو الموت، فيفعل ذلك بهم لطفاً منه ورحمة ومداراة لها { إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } .الأنعام139. الحجر25. لطيف بهم {رَوُوفٌ رَحِيمٌ} .التوبة117+128.النور20.الحشر10. ولهذا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول لبلال المؤذن رضي الله عنه (أرحنا بها يا بلال) أي بالإقامة لندخل في الصلاة لمشاهدة ما ذكرناه من الحال، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : (وجعلت قرّة عيني في الصلاة).

المقالة العاشرة في النفس و أحوالها

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إنما هو الله ونفسك وأنت المخاطب، والنفس ضد الله وعدوه، والأشياء كلها تابعة لله، والنفس له خلقاً ومُلْكاً، وللنفس ادعاء وتمن وشهوت ولذة بملابستها، فإذا وافقت الحق عز وجل في مخالفة النفس وعدوانها فكنت لله خصماً على نفسك كما قال الله عز وجل لداود عليه السلام : "يا داود أنا بدك اللازم فألزم بدك، العبودية أن تكون خصماً على نفسك" فتحققت حينئذ موالاتك وعبوديتك لله عز وجل، وأنتك الأقسام هنيئاً مريئاً مطيباً وأنت عزيز ومكرم، وخدمتك الأشياء وعظمتك وفخمتك، لأنها بأجمعها تابعة لربها موافقة له إذ هو خالقها ومنشئها، وهي مقرة له بالعبودية. قال الله تعالى : {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} {الإسراء:44.} فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيَةٌ أَوْ كَرَاهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} {فصلت:11.} فالعبادة كل العبادة في مخالفة نفسك. قال الله تعالى : {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ} {ص:26.} وقال لداود عليه السلام : "أهجر هواك فإنه منازع".

والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله لما رأى رب العزة في المنام فقال له : كيف الطريق إليك ؟، قال : اترك نفسك وتعال، فقال : فانسلخت كما تنسلخ الحية من جلدها، فإذا الخير كله في معادتها في الجملة في الأحوال كلها، فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس، بأن تخرج من حرام الخلق وشبهتهم ومنتهم والانتكال عليهم والثقة بهم والخوف منهم، والرجاء لهم والطمع فيما عندهم من أحكام الدنيا، فلا ترج عطاياهم على طريق الهدية والزكاة والصدقة أو النذر، فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب حتى إن كان لك نسب ذو مال لا تتمن موته لثرت ماله، فاخرج من الخلق جاداً وجعلهم كالباب يرد ويفتح، وشجرة توجد فيها ثمر تارة وتختل أخرى وكل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر وهو الله جلّ وعلا، لتكون موحداً للرب، ولا تنس مع ذلك كسبهم لتخلص من مذهب الجبرية، واعتقد أن الأفعال لا تتم بهم دون الله لا تعيدهم وتنسى الله. ولا تقل فعلهم دون فعل الله فتكفر فتكون قديراً، لكن قل هي لله خلقاً وللعباد كسباً كما جاءت به الآثار، لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب، وامتلأ أمر الله فيهم، وخلص قسم منهم بأمره ولا تجاوزه فحكم الله قائم بحكمه عليك وعليهم، فلا تكن أنت الحاكم، وكونك معهم قدر والقدر ظلمة فادخل بالظلمة في المصباح وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا تخرج عنهما فإن خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضه على الكتاب والسنة، فإن وجدت فيها تحريم ذلك مثل أن تلهم بالزنا والرياء ومخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي، فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به، واقطع بأنه من الشيطان اللعين نعوذ بالله منه. وإن وجدت فيها إباحة كالشهوات المباحة من الأكل أو الشرب أو اللبس أو النكاح فاهجره أيضاً ولا تقبله، واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها. وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه وإباحته، بل هو أمر لا تعقله مثل السائق لك أنت موضع كذا وكذا، الق فلاناً صالحاً، ولا حاجة لك هناك ولا في الصالح لاستغنائك عنه بما أولاك الله من نعمته من العلم والمعرفة، فتوقف في ذلك ولا تبادر إليه فنقول هذا إلهام من الحق جلّ وعلا فاعمل به بل انتظر الخير كله في ذلك وفعل الحق عز وجل بأن يتكرر ذلك الإلهام وتؤمر بالسعي، أو علامة تظهر لأهل العلم بالله عز وجل يعقلها العقلاء من الأولياء والمؤيدون من الأبدال، وإنما لم يتبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه، وما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان

فاصبر حتى يكون هو عزَّ وجلَّ الفاعل فيك, فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك واستقبلتك فتنة كنت محمولاً محفوظاً فيها, لأن الله تعالى لا يعاقبك على فعله وإنما تتطرق العقوبة نحوك لكونك في الشيء, وإن كنت في حالة الحقيقة وهي حالة الولاية فخالف هواك واتبع الأمر في جملة.

واتباع الأمر على قسمين :

أحدهما أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وتترك الحظ , وتؤدي الفرض وتشتغل بترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن.

والقسم الثاني ما كان بأمر باطن, وهو أمر الحق عزَّ وجلَّ, يأمر عبده وينهاه, وإنما يتحقق بهذا الأمر في المباح الذي ليس له حكم في الشرع على معنى ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب, بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره فسمي مباحاً فلا يحدث للعبد فيه شيئاً من عنده بل ينتظر الأمر فيه, فإذا أمر امتثل فتصير حركاته وسكناته بالله عزَّ وجلَّ, ما في الشرع حكمه فبالشرع, وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن فحينئذ يصير محقاً من أهل الحقيقة, وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حاله التسليم, وإن كنت في حالة حق الحق وهي حالة المحو والفناء وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجله الموحدين العارفين أرباب العلوم والعقل السادة الأمراء الشحن خفراء الخلق خلفاء الرحمن وأخلائه وأعيانه وأحبائه عليهم السلام, فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة, وأن لا يكون لك إرادة وهمة في شيء البتة دنيا وعقبى, فتكون عبد الملك لا عبد المُلْك وعبد الأمر لا عبد الهوى كالطفل مع الظئر, والميت الغسيل مع الغسل, والمريض المقلوب على جنبه بين يدي الطبيب فيما سوى الأمر والنهي والله أعلم.

المقالة الحادية عشرة في الشهوة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا ألقيت عليك شهوة النكاح في حالة الفقر وعجزت عن مؤنته فصبرت عنه منتظر الفرج من الباري عزَّ وجلَّ, إما بزوالها وإقلاعها عنك بقدرته التي ألقاها عليك وأوجدها فيك فيعينك أو يصونك وحياتك عن حمل مؤنتها أيضاً أو بإيصالها إليك موهبة مهنتاً مكفياً من غير ثقل في الدنيا ولا تعب في العقبى, وسماك الله عزَّ وجلَّ صابراً شاكراً لصبرك عنها راضياً بقسمته فزادك عصمة وقوة. فإن كان قسماً لك ساقها إليك مكفياً مهنتاً فينقلب الصبر شكراً, وهو عزَّ وجلَّ وعد الشاكرين بالزيادة في العطاء قال الله عزَّ وجلَّ : {لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} . إبراهيم 7.

وإن لم تكن قسماً لك فالغنى عنها بقلعها من القلب إن شاءت النفس أو أبت, فلازم الصبر وخالف الهوى وعانق الأمر وارض بالقضاء, وارج بذلك الفضل والعطاء, وقد قال الله تعالى : {إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} . الزمر 10.

المقالة الثانية عشرة في النهي عن حب المال

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا أعطاك الله عزَّ وجلَّ مالاً فاشتغلت به عن طاعته حجبك به عنه دنيا وأخرى, وربما سلبك إياه وغيرك وأفقرك لاشتغالك بالنعمة عن المنعم, وإن اشتغلت بطاعته عن المال جعله موهبة ولم ينقص منه حبة واحدة وكان المال خادماً وأنت خادم المولى, فتعيش في الدنيا مدلاً وفي العقبى مكرماً مطيباً في جنة المأوى مع الصديقين والشهداء والصالحين.

المقالة الثالثة عشرة في التسليم لأمر الله

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى، فالنعماء واصلة إليك إن كانت قسمك استجلبتها أو كرهتها، والبلوى حائلةً بك إن كانت قسمك مقضية عليك سواء كرهتها أو رفعها بالدعاء أو صبرت وتجلدت لرضى المولى، بل سلم في الكل، فيفعل الفعل فيك، فإن كانت النعماء فاشتغل بالشكر، وإن كانت البلوى فاشتغل بالتصبر والصبر، أو الموافقة والتنعيم بها أو العدم أو الفناء فيها على قدر ما تعطى من الحالات وتنتقل فيها، وما تسير في المنازل في طريق المولى الذي أمرت بطاعته والموالاة، لتصل إلى الرفيق الأعلى، فتقام حينئذ مقام من تقدم ومضى من الصديقين والشهداء والصالحين، لتعابن من سبقك إلى المليك ومنه دنا، ووجد عنده كل طريفة وسروراً وأمناً، وكرامة ونعماً.

دع البلية تزورك، خل من سبيلها، ولا تقف ولا تجزع من مجيئها وقربها، فليس نارها أعظم من نار جهنم ولظى، فقد ثبت في الخبر المروي عن خير البرية، وخير من حملته الأرض وأظلمته السماء محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن نار جهنم تقول للمؤمن جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي) فهل كان نور المؤمن الذي أطفأ لهب النار في لظى إلا الذي صحبه في الدنيا الذي لن يمر من أطاعها وعصى، فليطفئ هذا النور لهب البلوى، ولتجد برد صبرك وموافقك للمولى وهيج ما حل بك من ذلك ومنك دنا، فالبلية لم تأتك لتهلكك، لكنها تأتيك لتجربك وتحقق صحة إيمانك وتوثيق عروة يقينك ويبشرك باطنها من مولاك بمباهاته بك، قال الله تعالى : {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} محمد 31. فإذا ثبت مع الحق إيمانك ووافقته في فعله بيقينك كل ذلك بتوفيق منه ومنة، فكن حينئذ أبداً صابراً موافقاً مُسَلِّماً لا تحدث فيك ولا في غيرك حادثة ما خرج عن الأمر والنهي، فإذا كان أمره عز وجل فتسامع وتسارع وتحرك ولا تسكن ولا تسلم للقدر والفعل، بل ابذل طوقك وجهودك لتؤدي الأمر، فإن عجزت فدونك الالتجاء إلى مولاك عز وجل، فالتجئ إليه وتضرع واعتذر، وفتش عن سبب عجزك عن أداء أمره وصدك عن التشوق لطاعته لعل ذلك لشؤم دعائك وسوء أدبك في طاعته، ورعونتك واتكالك على حولك وقوتك، وإعجابك بعلمك وشركك إياك بنفسك وخلقه، فصدك عن بابه، وعزلك عن طاعته وخدمته، وقطع عنك مدد توفيقه، وولى عنك وجهه الكريم، ومقتك وقلاك، وشغلك ببلائك دنياك وهواك، وإرادتك ومناك.

أما تعلم أن كل ذلك مشغول عن ذلك، وقاطعك عن عين الذي خلقك ورباك، وخوِّك وأعطاك وأحياك.

احذر لا يلهيك عن مولاك غير مولاك، وكل من سوى مولاك غيره، فلا تؤثر عليه غيره فإنه خلقك له، فلا تظلم نفسك فتشغل بغيره عن أمره فيدخلك النار التي وقودها الناس والحجارة فتندم، فلا ينفعك الندم، وتعذر فلا تعذر، وتستعجب فلا تعجب، وتسترجع إلى الدنيا لتستدرك وتصلح فلا ترجع.

ارحم نفسك وأشفق عليها، واستعمل الآلات والأدوات التي أعطيتها في طاعة مولاك من الفعل والإيمان والمعرفة والعلم.

استضيء بنورهما في ظلمات الأقدار، وتمسك بالأمر والنهي، وسيرهما في طريق مولاك وسلم ما سواهما إلى الذي خلقك وأنشأك، فلا تكفر بالذي خلقك من تراب ورباك، ثم من نطفة ثم رجلاً سواك، ولا ترد غير أمره، ولا تكره غير نهيه.

اقنع من الدنيا والأخرى بهذا المراد واكره فيهما هذا المكروه، فكل ما يراد تبع لهذا المراد، وكل مكروه تبع لهذا المكروه.

إذا كنت مع أمره كانت الأكوام في أمرك، وإذا كرهت نهيه فرت منك المكاره أين كنت وحللت.

قال الله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه : (يا ابن آدم أنا الله لا إله إلا أنا أقول للشيء كن فيكون ، أظنني أجعلك تقول للشيء كن فيكون) وقال عزَّ وجلَّ : (يا دنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فأتعبيه) فإذا جاء نهيه عزَّ وجلَّ فكن كأنك مسترخي المفاصل، مسكن الحواس، مضيق الذرع، متماوت الجسد، زائل الهوى، منطمس الوسوم، منمحي الرسوم، منسي الأثر، مظلم القنا، متهدم البناء، خاوي البيت، ساقط العرش، لا حس ولا أثر، فليكن سمعك كأنه أصم وعلى ذلك مخلوق، وبصرك كأنه معصب أو مرمود أو مطموس، وشفطاك كأن بهما قرحة وبثوراً، ولسانك كأنه به خرساً وكلولاً، وأسنانك كأن بهما ضرياناً وألماً ونشوراً، ويداك كأن بهما شللاً وعن البطش قصوراً، ورجلاك كأن بهما رعدة وارتعاشاً وجروحاً، وفرجك كأن به عنة وبغير ذلك الشأن مشغولاً، وبطنك كأن به امتلاء وارتواء وعن الطعام غنى، وعقلك كأنك مجنون ومخبول، وجسدك كأنك ميت وإلى القبر محمول، فالتسامع والتسارع في الأمر، والتعاقد والتجاعد والتفاصر في النهي، والتماوت والتعدام والتفاني في القدر، فاشرب هذه الشربة، وتداو بهذا الدواء، وتغذ بهذا الغذاء، تنجح وتشفى، وتعافى من أمراض الذنوب وعلل الأهواء، بإذن الله تعالى إن شاء الله.

المقالة الرابعة عشرة في إتباع أحوال القوم

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تدع حالة القوم يا صاحب الهوى أنت تعبد الهوى وهم عبيد المولى، أنت رغبتك في الدنيا ورغبة القوم في العقبى، أنت ترى الدنيا وهم يرون ربَّ الأرض والسماء، وأنت أنسك بالخلق وأنس القوم بالحق، أنت قلبك متعلق بمن في الأرض وقلوب القوم بربِّ العرش، أنت يصطادك من ترى وهم لا يرون من ترى بل يرون خالق الأشياء وما يرى، فاز القوم به وحصلت لهم النجاة، وبقيت أنت مرتهاً بما تشتهي من الدنيا وتهوى، فنوا عن الخلق والهوى والإرادة والمنى فوصلوا إلى الملك الأعلى، فأوقفهم على غاية

ما رام منهم من الطاعة والجد والثناء {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}. المائدة 54. فلازموا ذلك وواظبوا بتوفيق منه وتيسير بلا عناء, فصارت الطاعة لهم روحاً وغذاء, وصارت الدنيا إذ ذاك في حقهم نقمة وخزياً, فكأنها لهم جنة المأوى إذ ما يرون شيئاً من الأشياء حتى يروا قبله فعل الذي خلق وأنشأ فيهم ثبات الأرض والسماء, وقرار الموت والإحياء إذ جعلهم مليكهم أوتاداً للأرض الذي دحى, فكل كالجبل الذي رسى, ففتح عن طريقهم ولا تراحم من لم يفده عن قصده الآباء والأبناء, فهم خير من خلق ربي وبث في الأرض وذراً, فعليهم سلام الله وتحياته ما دامت الأرض والسماء.

المقالة الخامسة عشرة في الخوف و الرجاء

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : رأيت في المنام كأنني في موضع شبه مسجد وفيه قوم منقطعون, فقلت : لو كان لهؤلاء فلان يؤدبهم ويرشدهم, فأشرت إلى رجل من الصالحين فاجتمع القوم حولي فقال واحد منهم : فأنت لأي شيء لا تتكلم ؟ فقلت : إن رضيتموني ذلك, ثم قلت : إذا انقطعتم من الخلق إلى الحق فلا تسألوا الناس شيئاً بألسنتكم, فإذا تركتم ذلك فلا تسألوهم بقلوبكم, فإن السؤال بالقلب كالسؤال باللسان.

ثم اعلما أن الله {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}. الرحمن 29. في تغيير وتبديل ورفع وخفض, فقوم يرفعهم إلى عليين, وقوم يحطهم إلى أسفل سافلين, فخوف الذين رفعهم إلى عليين أن يحطهم إلى أسفل سافلين, ورجاؤهم أن يبقوهم ويحفظهم على ما هم عليه من الرفع, وخوف الذين حطهم إلى أسفل سافلين, أن يبقوهم ويخلدوهم على ما هم فيه من الحط, ورجاؤهم أن يرفعهم إلى عليين, ثم انتبهت.

المقالة السادسة عشرة في التوكل و مقاماته

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ما حجت عن فضل الله ونعمه إلا لا تكالك على الخلق والأسباب, والصنائع والاكْتساب, فالخلق حجابك عن الأكل بالسنة وهو المكسب, فما دمت قائماً مع الخلق راجياً لعطاياهم وفضلهم سائلاً لهم متردداً إلى أبوابهم فأنت مشرك بالله خلقه, فيعاقبك بحرمان الأكل بالسنة الذي هو الكسب من حلال الدنيا, ثم إذا تبت عن القيام مع الخلق وشرك بربك عز وجل إياهم ورجعت إلى الكسب فتأكل بالكسب وتتوكل على الكسب وتطمئن إليه وتنسى فضل الرب عز وجل, فأنت مشرك أيضاً, إلا أنه شرك خفي أخفى من الأول, فيعاقبك الله عز وجل ويحجبك عن فضله والبداءة به, فإذا تبت عن ذلك وأزلت الشرك عن الوسط, ورفعت اتكالك عن الكسب والحوّل والقوة, ورأيت الله عز وجل هو الرزاق, وهو المسبب والمسهل والمقوي على الكسب, والموفق لكل خير والرزق بيده, تارة يواصلك به بطريق الخلق على وجه المسألة لهم في حالة الابتلاء أو الرياضة أو عند سؤالك له عز وجل, وأخرى بطريق الكسب معاوضة وأخرى من فضله مبادأة من غير أن ترى الوسطة والسبب, فرجعت إليه واستطرحت بين يديه, ورفع الحجاب بينك وبين فضله, وبإدائك وغذاك بفضله, عند كل حاجة على قدر ما يوافق حالك, كفعل الطبيب الشفيق الرقيق الحبيب للمريض حماية منه عز وجل, وتنزيهاً لك عن الميل إلى من سواه, يرضيك بفضله, فإذا ينقطع عن قلبك كل إرادة وكل شهوة ولذة ومطلوب ومحبوب, فلا يبقى في قلبك سوى إرادته عز وجل, فإذا أراد أن يسوق إليك قسمك الذي لا بدّ من تناوله وليس هو رزقاً لأحد من خلقه سواك, أوجد عندك شهوة ذلك القسم وساقه إليك, فيواصلك به عند الحاجة, ثم يوفئك ويعرفك أنه منه وهو سائقه إليك ورازقه لك, فتشكره حينئذ وتعرف وتعلم, فيزيدك خروجاً من الخلق وبعداً من الأنام, وأخليت الباطن عما سواه عز وجل, ثم إذا قوي علمك ويقينك, وشرح صدرك ونور قلبك, وزاد قربك من مولاك ومكانتك لديه عنده, وأهلينك لحفظ الأسرار علمت متى يأتيك قسمك كرامة لك وإجلالاً لحرمتك فضلاً منه ومنه وهداية, قال الله تعالى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } .السجدة 24. وقال الله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } .العنكبوت 69. وقال تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ } .البقرة 282. ثم يرد عليك التكوين فتكون بالإذن الصريح الذي هو لا غبار عليه والدلالات اللائحة كالشمس المنيرة, وبكلامه اللذيذ الذي هو أذ من كل لذيق, وإلهام صدق من غير تلبس مصفى من هواجس النفس ووساوس الشيطان الرجيم.

قال الله تعالى في بعض كتبه : (يا ابن آدم أنا الله الذي لا إله إلا أنا أقول للشيء كن فيكون, أظنني أجعلك تقول للشيء كن فيكون), وقد فعل ذلك بكثير من أنبيائه وأوليائه وخواصه من بني آدم.

المقالة السابعة عشرة
في كيفية الوصول إلى الله بواسطة المرشد

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا وصلت إلى الله قربت بتقريبه وتوفيقه, ومعنى الوصول إلى الله عز وجل خروجك عن الخلق والهوى والإرادة والمنى, والثبوت مع فعله ومن

غير أن يكون منك حركة فيك ولا في خلقه بك، بل بحكمه وأمره وفعله، فهي حالة الفناء يعبر عنها بالوصول، فالوصول إلى الله عزَّ وجلَّ ليس كالوصول إلى أحد من خلقه المعقول المعهود {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {الشورى 11}. جلَّ الخالق أن يشبهه بمخلوقاته أو يقاس على مصنوعاته، فالواصل إليه عزَّ وجلَّ معروف عند أهل الوصول بتعريفه عزَّ وجلَّ لهم كل واحد على حدة لا يشاركه فيه غيره، وله عزَّ وجلَّ مع كل واحد من رسله وأنبيائه وأوليائه سر من حيث هو لا يطلع على ذلك أحد غيره، حتى أنه قد يكون للمريد سر لا يطلع عليه شيخه، وللشيخ سر لا يطلع عليه مريده الذي قد دنا سيره إلى عتبة باب حالة شيخه، فإذا بلغ المريد حالة شيخه أفرد عن الشيخ وقطع عنه، فيتولاه الحق عزَّ وجلَّ فيفطمه عن الخلق جملة، فيكون الشيخ كالضئير والداية، لا رضاع بعد الحولين، ولا خلق بعد زوال الهوى والإرادة. الشيخ يحتاج إليه ما دام ثم هوى وإرادة لكسرهما، وأما بعد زوالهما فلا، لأنه لا كدورة ولا نقصان، فإذا وصلت إلى الحق عزَّ وجلَّ على ما بينا فكن آمناً أبداً من سواه عزَّ وجلَّ فلا ترى لغيره وجوداً البتة، لا في الضر ولا في النفع، ولا في العطاء ولا في المنع، ولا في الخوف ولا في الرجاء، هو عزَّ وجلَّ {أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} {المدثر 56}. فكن أبداً ناظراً إلى فعله مترقباً لأمره. مشتغلاً بطاعته، مبايناً عن جميع خلقه دنياً وأخرى.

لا تعلق قلبك بشيء منهم واجعل الخليفة أجمع كرجل كتَّفَهُ سلطان عظيم ملكه شديد أمره، مهولة صولته وسطوته، ثم جعل الغل في رقبته ورجليه، ثم صلبه على شجرة الأرز، على شاطئ نهر عظيم موجه، فسيح عرضه، عميق غوره، شديد جريه، ثم جلس السلطان على كرسيه، عظيم قدره، عال سماؤه، بعيد مرامه ووصوله، وترك إلى جنبه أحمالاً من السهام والرماح والنبل وأنواع السلاح والقسى ومما لا يبلغ قدرها غيره، فجعل يرمي إلى المصلوب بما شاء من ذلك السلاح، فهل يحسن لمن يرى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان والخوف منه والرجاء له وينظر إلى المصلوب ويخاف منه ويرجوه، أليس من فعل ذلك يسمى في قضية العقل عديم العقل والحس مجنوناً. بهيمة غير إنسان؟؟ نعوذ بالله من العمى بعد البصيرة، ومن القطيعة بعد الوصول، ومن الصدود بعد الدنو والقرب، ومن الضلالة بعد الهداية، ومن الكفر بعد الإيمان، فالدنيا كالنهر العظيم الجاري الذي ذكرناه كل يوم في زيادة ماء وهي شهوات بني آدم ولذاتهم فيها، والدواهي التي تصيبهم منها، وأما السهام وأنواع السلاح فالبلايا التي يجري بها القدر إليهم، فالغالب على بني آدم في الدنيا البلايا والآلام والمحن، وما يجدون من النعم واللذات فيها فمشوبة بالآفات إذا اعتبرها كل عاقل لا حياة له ولا عيش ولا راحة إلا في الآخرة إن كان مؤمناً، لأن ذلك خصوصاً في حق المؤمن. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا عيش إلا عيش الآخرة) وقال عليه الصلاة والسلام: (لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه) ذلك في حق المؤمنين. وقال صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر). وقال عليه الصلاة والسلام: (التقي ملجم) فمع هذه الأخبار والعيان كيف يدعي طيب العيش في الدنيا. فالراحة كل الراحة في الانقطاع إلى الله عزَّ وجلَّ وموافقته، والاستطراح بين يديه، فيكون العبد بذلك خارجاً عن الدنيا، فحينئذ يكون الدلال رافة ورحمة ولطفاً وفضلاً، والله أعلم.

المقالة الثامنة عشرة في النهي عن الشكوى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : الوصية لا تشكون إلى أحد ما نزل بك من خير كائناً من كان صديقاً أو عدواً ولا تتهمن الرب عزَّ وجلَّ فيما فعل فيك وأنزل بك من البلاء, بل أظهر الخير والشكر, فكذبك باظهارك للشكر من غير نعمة عندك خير من صدقك في إخبارك جلية الحال بالشكوى, من الذي خلا من نعمة الله عزَّ وجلَّ؟؟ قال الله تعالى : {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}. النحل 18. فكم من نعمة عندك وأنت لا تعرفها؟؟ لا تسكن إلى أحد من الخلق, ولا تستأنس به, ولا تطلع أحداً على ما أنت فيه, بل يكون أنسك بالله عزَّ وجلَّ, وسكونك إليه وشكواك منه وإليه لا ترى ثانياً, فإنه ليس لأحد ضرر ونفع, ولا جلب ولا دفع, ولا عزَّ ولا ذل, ولا رفع ولا خفض, ولا فقر ولا غنى, ولا تحريك ولا تسكين, الأشياء كلها خلق الله عزَّ وجلَّ وببإذن الله عزَّ وجلَّ, بأمره وإذنه جريئاً, وكل يجري لأجل مسمى, وكل شيء عنده بمقدار, لا مقدم لما أحر, ولا مؤخر لما قدم, قال الله عزَّ وجلَّ : {وَإِنْ يَمَسُّنَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. يونس 107. فإن شكوت منه عزَّ وجلَّ وأنت معافي وعندك نعمة طالباً الزيادة وتعامياً عن ماله عندك من النعمة والعافية استهزاءً بها, غضب عليك وأزالهما عنك, وحقق شكواك, وضاعف بلواك, وشدد عقوبتك ومقتك وقلالك, وأسقطك من عينه : احذر الشكوى جداً ولو قطعت وقرض لحمك بالمقاريض.

إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ, الله الله ثم الله, النجاة النجاة, الحذر الحذر, فإن أكثر ما ينزل بابن آدم من أنواع البلاء بشكواه من ربه عزَّ وجلَّ. كيف يشتكى منه عزَّ وجلَّ وهو أرحم الراحمين, وخير الحاكمين, حكيم خبير, رؤوف رحيم, لطيف بعباده, وليس بظلام للعبيد, كطبيب حكيم حبيب شفيق لطيف قريب هل تتهم الوالدة الرحيمة, قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الله أرحم بعبده من الوالدة بولدها). أحسن الأدب يا مسكين, تصبّر عند البلاء إن ضعفت على الصبر, ثم اصبر إن ضعفت عن الرضا والموافقة, ثم أرض ووافق إن وجدت, ثم أفن إذا فقدت, أيها الكبريت الأحمر أين أنت أين توجد وترى؟؟ أما تسمع إلى قوله عزَّ وجلَّ : {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}. البقرة 216. طوى عنك علم حقيقة الأشياء وحجبك عنه, فلا تسيء الأدب فتكره بك أو تحب بك, بل اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حالة التقوى التي هي القدم الأولى, واتبع الأمر في حالة الولاية وخمود وجود الهوى ولا تجاوزه وهي القدم الثانية, وأرض بالفعل ووافق, وافن في حالة البدلية والغوثية والقطبية والصديقية, وهي المنتهى, تنح عن طريق القدر, خل عن سبيله, رد نفسك وهواك, كف لسانك عن الشكوى, فإذا فعلت ذلك, إن كان خيراً زادك المولى طيبة وسروراً ولذة, وإن كان شراً حفظك في طاعته فيه, وأزال عنك الملامة, وأفقدك فيه حتى يتجاوز عنك, ويرحل عند انقضاء أجله, كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار, والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف, ذلك أنموذج عندك, فاعتبر بهم, ثم ذنوب وأثم وإجرام وتلويثات بأنواع المعاصي والخطيئات ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا الطاهر عن أنجاس الذنوب والزلات, ولا يقبل على سدته إلا طيباً من درن الدعاوى والهوسات, كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ, فالبلايا مكفرات مطهرات قال النبي صلى الله عليه وسلم : (حمى يوم كفارة سنة) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المقالة التاسعة عشرة في الأمر بوفاء العهد و النهي عن خلفه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا كنت ضعيف الإيمان واليقين و وعدت بوعد وفّ بوعدك, ولا تخلف كيلا يزول إيمانك ويذهب يقينك.

وإذا قوي ذلك في قلبك وتمكنت خوطبت بقوله : {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} .يوسف54. وتكرر هذا الخطاب لك حالاً بعد حال فكنت من الخواص بل من خواص الخواص ولم يبق لك إرادة ولا مطلب, ولا عمل تعجب به ولا قرينة تراها, ولا منزلة تلمحها, فتسمو همتك إليها, فصرت كالإناء المنثلم الذي لا يثبت فيه مائع, فلا يثبت فيك إرادة ولا خلق ولا همة إلى شيء من الأشياء دنيا وأخرى, وطهرت مما سوى الله تعالى, وأعطيت رضاك عن الله عزّ وجلّ, ووعدت برضوانه عزّ وجلّ عنك, ولذذت ونعمت بأفعال الله عزّ وجلّ أجمع, فحينئذ توعد بوعد, فإذا اطمأننت إليه ووجدت فيه إمارة إرادة ما نقلت عن ذلك الوعد إلى ما هو أعلى منه, وصرفت إلى أشرف منه, وعوضت عن الأول بالغنى عنه, وفتحت لك أبواب المعارف والعلوم وأطلعت على غوامض الأمور وحقائق الحكمة والمصالح المدفونة في الانتقال من الأول إلى ما يليه ويزاد حينئذ في مكانتك في حفظ الحال ثم المقال, وفي أمانتك في حفظ الأسرار وشرح الصدور وتنوير القلب وفصاحة اللسان والحكمة البالغة في إلقاء المحبة عليك, فجعلت محبوب الخليفة أجمع الثقلين وما سواهما دنيا وأخرى. إذا صرت محبوب الحق عزّ وجلّ, والخلق تابع للحق جلّ وعلا, ومحبتهم مندرجة في محبته, كما أن بغضهم يندرج في بغضه عزّ وجلّ. فإذا بلغت المقام الذي ليس فيه إرادة شيء البتة جعلت لك إرادة شيء من الأشياء, فإذا تحققت إرادتك لذلك الشيء أزيل الشيء وأعدم, وصرفت عنه فلم تعطه في الدنيا, وعوضت عنه الأخرى بما يزيدك قرينة وزلفى إلى العلي الأعلى, وما تقر به عينك في الفردوس الأعلى وجنة المأوى, وإن كنت لم تطلب ذلك وتأمله وترجوه وأنت في دار الدنيا التي هي دار الفناء والتكاليف والعناء, بل رجاؤك وأنت فيها وجه الذي خلق وبرا ومنع وأعطى, وبسط الأرض ورفع السماء إذ ذاك هو المراد والمطلوب والمنى, وربما عوضت عن ذلك بما هو أدنى منه أو مثله في الدنيا بعد انكسار قلبك وبصرك, حينئذ يصدق عن ذلك المطلوب والمراد, وتحقيق العوض في الأخرى على ما ذكرنا وبيننا, والله سبحانه أعلم.

المقالة العشرون

في قوله صلى الله عليه وسلم :
((دع ما يُريبك إلى ما لا يريبك))

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : دع ما يريبك إذا اجتمع مع مالا يريبك, فخذ بالعزيمة الذي لا يشوبها ريب ولا شك, ودع ما يريبك, فأما إذا تجرد المريب المشوب الذي لم يصف عن حز القلب وحكه فتوقف فيه وانظر الأمر فيه, فإن أمرت بتناوله فتناوله فدونك وإن أمرت بالكف عنه ومنعت فكف, فليكن ذلك عندك كأنه لم يكن ولم يوجد, ارجع إلى الباب وابتغ عند ربك الرزق, وإن ضعفت عن الصبر أو الموافقة أو الرضا أو الفنا فهو عز وجل لا يحتاج أن يذكر فليس بغافل عنك وعن غيرك, وهو عز وجل يطعم الكفار والمنافقين والمدبرين عنه فكيف ينسأك؟؟ أيها المؤمن الموحد المقبل على طاعته والقائم بأمره في آناء الليل وأطراف النهار.

(وجه آخر) دع ما في أيدي الخلق فلا تطلبه ولا تعلق قلبك به, ولا ترجو الخلق ولا تخافهم, وخذ من فضل الله عز وجل وهو ما لا يريبك, وليكن لك مسؤول واحد ومرجو واحد ومخوف واحد وموجود واحد وهمة واحدة وهو ربك عز وجل الذي نواصي الملوك بيده وقلوب الخلق بيده التي هي أمراء الأجساد, وأموال الخلق له عز وجل, وهم وكلاؤه وأمنأؤه, وحركة أيديهم بالعطاء لك بإذنه عز وجل وأمره وتحريكه, وكفها عن عطائك ذلك, قال الله عز وجل :
{وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ}. النساء 32. وقال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}. العنكبوت 17. وقال سبحانه :
{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}. البقرة 186. وقال تعالى :
{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}. غافر 60. وقال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ}. الذاريات 58. وقال تعالى : {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. آل عمران 37.

المقالة الحادية والعشرون

في مكالمة إبليس نعوذ بالله منه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : رأيت إبليس اللعين في المنام وأنا في جمع كثير فهتمت بقتله, فقال لي لعنه الله لم تقتلني وما ذنبي؟؟ إن جرى القدر بالشر فلا أقدر أغيره إلى خير وأنقله إليه, وإن جرى بالخير فلا أقدر أغيره إلى شر وأنقله إليه, فأني شيء بيدي؟؟ وكانت صورته على صورة الخناثي لين الكلام مشوه الوجه طاقات شعر في ذقنه حقير الصورة دميمة الخلق, ثم تبسم في وجهي تبسم خجل ووجل وذلك في ليلة الأحد ثاني عشر من ذي الحجة من سنة ستة عشر وخمسمائة, والله الهادي لكل خير.

المقالة الثانية والعشرون في ابتلاء المؤمن على قدر إيمانه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا يزال الله يبتلى عبده المؤمن على قدر إيمانه، فمن عظم إيمانه وكثر وتزايد عظم بلاؤه، الرسول بلاؤه أعظم من بلاء النبي، لأن إيمانه أعظم، والنبي بلاؤه أعظم من بلاء البديل وبلاء البديل أعظم من بلاء الولي، كل واحد على قدر إيمانه ويقينه. وأصل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إنا معشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل) فيديم الله تعالى البلاء لهؤلاء السادات الكرام حتى يكونوا أبدأ في الحضرة ولا يغفلوا عن اليقظة، لأنه يحبهم، فهم أهل المحبة يحبون الحق، والمحب أبدأ لا يختار بعد محبوبه، فالبلاء خطاف لقلوبهم وقيد لنفوسهم، يمنعهم عن الميل إلى غير مطلوبهم والسكون والركون إلى غير خالقهم، فإذا دام ذلك في حقهم ذابت أهويتهم وانكسرت نفوسهم وتميز الحق من الباطل فتنزوي الشهوات والإرادات، والميل إلى اللذات والراحات دنيا وأخرى بأجمعها إلى ما يلي النفس ويصير السكون إلى وعد الحق عز وجل، والرضا بقضائه، والقناعة بعطائه، والصبر على بلائه، والأمن من شر خلقه إلى ما يلي القلب، فتقوى شوكة القلب، فتصير الولاية على الجوارح إليه، لأن البلاء يقوى القلب واليقين، ويحقق الإيمان والصبر، ويضعف النفس والهوى، لأنه كلما وصل الألم ووجد من المؤمن الصبر والرضا والتسليم لفعل الرب عز وجل، رضي الرب تعالى عنه وشكره، فجاءه المدد والزيادة والتوفيق. قال الله تعالى : {لئن شكرتم لأزيدنكم} إبراهيم 7. وإذا تركت النفس بطلب شهوة من شهواتها ولذة من لذاتها من القلب فأجابها القلب إلى مطلوبها ذلك من غير أمر من الله تعالى وإذن منه حصلت بذلك غفلة عن الحق تعالى وشرك ومعصية، فعمهما الله تعالى بالخذلان والبلايا وتسليط الخلق، والأوجاع والأمراض والإيذاء والتشويش، فينال كل واحد من القلب والنفس حظ وإن لم يجب القلب والنفس إلى مطلوبها حتى يأتيه الإذن من قبل الحق عز وجل بإلهام في حق الأولياء، ووحى صريح في حق المرسلين والأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، فعمل ذلك عطاء ومنعاً، وعمهما الله بالرحمة والبركة، والعافية والرضا، والنور والمعرفة، والقرب والغنى والسلامة من الآفات، والنصر على الأعداء فاعلم ذلك وأحفظه وأحذر البلاء جداً في المسارعة إلى إجابة النفس والهوى، بل توقف وترقب في ذلك إذن المولى جل جلاله، فتسلم في الدنيا والعقبى إن شاء الله تعالى.

المقالة الثالثة والعشرون في الرضا بما قسم الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أرض بالدون وألزمه جداً حتى يبلغ الكتاب أجله فتنقل إلى الأعلى والأنفس، وبها تهناً وفيه تبقى وتحفظ بلا عناء دنيا وأخرى ولا تبعه ولا عدوى، ثم تترقى من ذلك إلى ما هو أقر عيناً منه وأهنأ.

وأعلم أن القسم لا يفوتك بترك الطلب، وما ليس بقسم لا تناله بحرصك في الطلب والجد والاجتهاد، فاصبر وألزم الحال وأرض به، لا تأخذ بك حتى تؤمر، ولا تعطى بك حتى تؤمر، ولا تتحرك بك ولا تسكن بك، فتنبلى بك وبمن هو شر منك من الخلق لأنك بذلك تظلم والظالم لا يغفل عنه قال الله عز وجل : { وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا } .الأنعام129. لأنك في دار ملك عظيم أمره شديدة شوكته، كثير جنده نافذة مشيئته قاهر حكمه باق ملكه دائم سلطانه دقيق علمه بالغة حكمته عدل قضاؤه { لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ } .سبأ3. لا يجاوزه ظلم ظالم فأنت أعظمهم ظلماً وأكبرهم جريمة، لأنك أشركت بتصرفك فيك وفي خلقه عز وجل بهواك. قال الله تعالى : { لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } .لقمان13. وقال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } .النساء48_116. أتق الشرك جداً ولا تقربه، واجتنبه في حرركاتك وسكناتك وليلك ونهارك، في خلوتك وجلوتك. وأحذر المعصية في الجملة في الجوارح والقلب واترك الإثم ما ظهر منه وما بطن. لا تهرب منه عز وجل فيدرلك، ولا تنازعه في قضاؤه فيقصمك، وتنتهمه في حكمه فيخذلك، ولا تغفل عنه فينبهك ويبتليك، ولا تحدث في داره حادثة فيهلكك، ولا تقل في دينه بهواك فيريدك ويظلم قلبك، ويسلب إيمانك ومعرفتك، ويسلط عليك شيطانك ونفسك وهواك وشهواتك وأهلك وجيرانك وأصحابك وأخلاءك وجميع خلقه حتى عقارب دارك وحياتها وجناتها وبقية هوامها فينغص عيشك في الدنيا ويطيل عذابك في العقبى.

المقالة الرابعة والعشرون في الحث على ملازمة باب الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أحذر معصية الله عز وجل جداً، وألزم بابه حقاً وأبذل طوقك وجهدك في طاعته معتذراً متضرعاً مفتقراً خاضعاً، متخشعاً مطرقاتاً، غير ناظر إلى خلقه ولا تابع لهواك، ولا طالب للأعواض دنيا وأخرى، ولا ارتقاء إلى المنازل العالية والمقامات الشريفة، واقطع بأنك عبده والعبد وما ملك لمولاه، لا يستحق عليه شيئاً من الأشياء، أحسن الأدب ولا تنتهم مولاك، فكل شئ عنده بمقدار، لا مقدم لما أخر ولا مؤخر لما قدم، يأتيك ما قدر لك عند وقته وأجله إن شئت أو أبييت، لا تشره على ما سيكون لك، ولا تطلب وتلهف على ما هو لغيرك، فما ليس هو عندك لا يخلو إما أن يكون لك أو لغيرك، فإن كان لك فهو إليك صائر وأنت إليه مقاد ومسير، فاللقاء عن قريب حاصل، وما ليس لك فأنت عنه مصروف وهو عنك

مول فأنى لكما التلاق فاشغل بإحسان الأدب فيما أنت بصدده من طاعة مولاك عزَّ وجلَّ في وقتك الحاضر، ولا ترفع رأسك ولا تمل عنقك إلى ما سواه. قال الله تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}. طه 131. فقد نهاك الله عزَّ وجلَّ عن الالتفات إلى غير ما أقامك فيه ورزقك من طاعته وأعطاك من قسمه ورزقه وفضله، ونبهك أن ما سوى ذلك فتنة افتتنهم به، ورضاك قسمك خير لك وأبقى وأبرك وأحرى وأولى، فليكن هذا دأبك ومتقلبك ومثواك، وشعارك ودثارك ومرادك ومرامك، وشهوتك ومناك، تنل به كل المرام، وتصل به إلى كل مقام وترقى به إلى كل خير ونعيم وطريف وسرور ونفيس. قال الله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. السجدة 17. ولا عمل بعد العبادات الخمس وترك الذنوب، ولا أجمع ولا أعظم ولا أشرف ولا أحب إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا أرضى عنده مما ذكرنا لك، وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى بمنه.

المقالة الخامسة والعشرون في شجرة الإيمان

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تقولن يا فقير اليد، يا مولى عنه الدنيا وأبناؤها، يا حامل الذكر بين ملوك الدنيا وأربابها، يا جائع يا نايح يا عريان الجسد يا ظمآن الكبد يا مشتتاً في كل زاوية من الأرض من مسجد وبقاع خراب، ومردوداً من كل باب، ومدفوعاً عن كل مراد، ومنكسراً ومزدحمماً في قلبه كل حاجة مرام. إن الله تعالى أقرني وذوى عنى الدنيا وغرني، وتركني وقلاني وفرقتي ولم يجمعني، وأهانني ولم يعطني من الدنيا كفاية، وأحملني ولم يرفع ذكرى بين الخليقة وإخواني، وأسبل على غيري نعمة منه سابعة يتقلب فيها في ليله ونهاره، وفضله عليّ وعلى أهل دياري وكلانا مسلمان مؤمنان ويجمعنا أبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام، أما أنت فقد فعل الله ذلك بك، لأن طينتك حرة وندى رحمة الله متدارك عليك من الصبر والرضا واليقين والموافقة والعلم وأنوار الإيمان والتوحيد متراكم لديك، فشجرة إيمانك وغرسها وبذرها ثابتة مكيئة مورقة مثمرة متزايدة منشعبة غضة مظلمة متفرعة، فهي كل يوم في زيادة ونمو، فلا حاجة بها إلى سباطة وعلف لتنمى بها وتربى، وقد فرغ الله عزَّ وجلَّ من أمرك على ذلك، وأعطاك في الآخرة دار البقاء وخولك فيها، وأجزل عطاءك في العقبي مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. قال الله تعالى: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. السجدة 17. أي ما عملوا في الدنيا من أداء الأوامر، والصبر على ترك المناهى، والتسليم والتفويض إليه في المقدور، والموافقة له في جميع الأمور. وأما الغير الذي أعطاه الله عزَّ وجلَّ الدنيا وخوله ونعمه بها وأسبغ عليه فضله فعل به ذلك، لأن محل إيمانه أرض سبخة وصخر لا يكاد يثبت فيها الماء وتنتبت فيها الأشجار، ويتربى فيها الزرع

والثمار فصب عليها أنواع سباطه وغيرها مما يربى به النبات والأشجار، وهى الدنيا وحطامها ليحفظ بها ما أنبت فيها من شجرة الإيمان وغرس الأعمال، فلو قطع ذلك عنها لجف النبات والأشجار، وانقطعت الثمار، فخربت الديار، وهو عز وجلّ مرید عمارتها، فحشرة إيمان الغنى ضعيفة المنبت وخال عما هو مشحون به منبت شجرة إيمانك يا فقير، فقوتها وبقاؤها بما ترى عنده من الدنيا وأنواع النعيم، فلو قطع ذلك عنه مع ضعف الشجرة جفت، فكان كفرًا وجحودًا وإحاقًا بالمنافقين والمرتدين والكفار، اللهم إلا أن يبعث الله عز وجلّ إلى الغنى عساكر الصبر والرضا واليقين والتوفيق والعلم وأنواع المعارف فيقوى الإيمان بها فحينئذ لا يبالي بانقطاع الغنى والنعيم، والله الهادي الموفق.

المقالة السادسة والعشرون

في النهي عن كشف البرقع عن الوجه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتى تخرج من الخلق وتوليهم ظهر قلبك في جميع الأحوال ويزول هواك، ثم تزول إرادتك ومناك، فتفنى عن الأكوان دنيا وأخرى، فتصير كإناء منتلّم لا يبقى فيك غير إرادة ربك عز وجلّ فتمتلئ به عز وجلّ وبحكمه، إذا خرج الزور دخل النور، فلا يكون لغير ربك في قلبك مكان ولا مدخل وجعلت بواب قلبك، وأعطيت سيف التوحيد والعظمة والجبروت، فكل من رأته دنا من ساحة صدرك إلى باب قلبك ندرت رأسه من كاهله فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ومناك في دنياك وأخراك عندك رأس امتثال ولا كلمة مسموعة، لا أرى متبع إلا إتياع أمر الرب عز وجلّ، والوقوف معه والرضا بقضائه وقدره، بل الفناء في قضائه وقدره، فتكون عبد الرب عز وجلّ وأمره لا عبد الخلق وآرائهم، فإذا استمر الأمر فيك كذلك ضربت حول قلبك سرادقات الغيرة وخنادق العظمة وسلطان الجبروت، وحف بجنود الحقيقة والتوحيد، ويقام دون ذلك حراس من الحق عز وجلّ، كيلا يخلص الخلق إلى تطلب القلب من الشيطان والنفس والهوى، والإرادات والأمانى الباطلة، والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والنفس الأمرة بالسوء، والضلالات الناشئة من الهوى، فحينئذ إن كان في القدر مجئ الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم وتطابقهم عليك، ليصيبوا من الأنوار اللائحة والعلامات المنيرة والحكم البالغة، ويروا من الكرامات الظاهرة وخوارق العادة المستمرة، ويزدادوا بذلك من القربات والطاعات والمجاهدات والمكابدات في عبادة ربهم عز وجلّ، حفظت عنهم أجمعين وعن ميل النفس إلى هواها، وعجبها ومباهااتها، وتعاضمها بالتكبر بهم وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك، وكذلك إن قدر مجئ زوجة حسناء جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها حفظت من شرها وحمل أثقالها وأتباعها وأهلها، وصارت عندك موهبة مكفاة مهناة منقاة مصفاة من الغش والخبث والغل والحقد والغضب والخيانة في الغيب، فتكون لك مسخرة، وهى وأهلها محمولة عنك مؤنتها، مدفوعة عنك أذيتها، وإن قدر منها ولد كان صالحاً ذرية طيبة قرّة عين. قال الله تعالى : { وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } .الأنبياء90. وقال تعالى: { هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } .الفرقان74. وقال تعالى: { وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا } .مريم6. فتكون هذه الدعوات التي في هذه الآيات معمولاً بها مستجابة في

حقك إن دعوت بها أو لم تدع، إذ هي في محلها وأهلها، وأولى من يعامل بهذه النعمة ويقابل بها من كان أهلاً لهذه المنزلة، وأقيم في هذا المقام وقدر له من الفضل والقرب هذا المقدر، وكذلك إن قدر مجيء شيء من الدنيا وإقبالها لا يضر إذ ذاك، فما هو قسمك منها فلا بد من تناوله وتصفيته لك بفعل الله عز وجل، وورود الأمر يتناوله وأنت ممتثل للأمر مثاب على تناوله، كما تثاب على فعل صلوات الفرض وصيام الفرض، وتؤمر فيما ليس بقسمك منها بصرفه إلى أربابه من الأصحاب والجيران والإخوان المستحقين الفقراء منهم وأصحاب الأقسام على ما يقتضى الحال، فالأحوال تكشفها وتميزها، ليس الخبر كالمعاينة. فحينئذ تكون من أمرك على بيضاء نقية لا غبار عليها ولا تلبيس ولا تخليط ولا شك ولا ارتياب، فالصبر الصبر، الرضا الرضا، حفظ الحال حفظ الحال، الخمول الخمول، الخمود الخمود، السكوت السكوت، الصموت الصموت، الإغماض الإغماض، الحذر الحذر، النجا النجا، الوحا الوحا، الله الله ثم الله، الإطراق الإطراق الإغماض الإغماض الحياء الحياء إن يبلغ الكتاب أجله، فيؤخذ بيدك فتقدم وينزع عنك ما عليك ثم تغوص في بحار الفضائل والمنن والرحمة ثم تخرج منها فتخلع عليك الأنوار والأسرار والعلوم والغرائب المدنية، ثم تقرب وتحدث فيه بإعلام وإلهام وتكلم وتعطى وتغنى وتشجع وترفع، وتخاطب بـ { إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } يوسف 54. فحينئذ أعتبر حالة يوسف الصديق عليه السلام حين خوطب بهذا الخطاب على لسان ملك مصر وعظيماً وفرعونها، كان لسان الملك قائلاً معبراً بهذا الخطاب والمخاطب هو الله عز وجل على لسان المعرفة، سلم إليه المالك الظاهر وهو ملك مصر، وملك النفس وملك المعرفة والعلم والقربة والخصوصية وعلو المنزلة عنده عز وجل. قال تعالى في ملك الملك: { وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ } يوسف 56. أي في أرض مصر { يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ } يوسف 56. قال تعالى في ملك النفس: { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24. وقال تعالى في ملك المعرفة والعلم: { ذَلِكَمَّا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } يوسف 37. فإذا خوطبت بهذا الخطاب يا أيها الصديق الأكبر، أعطيت الحظ الأوفر، من العلم الأعظم، ومنحت وهنيت بالتوفيق والمنن والقدرة والولاية العامة، والأمر النافذ على النفس وغيرها من الأشياء والتكوين، بإذن إله الأشياء في الدنيا قبل الآخرة. وأما في الأخرى في دار السلام والجنة العليا، فالنظر إلى وجه المولى الكريم زيادة ومنة، وهو المنى الذي لا غاية له ولا منتهى، والله الموفق لحقائق ذلك، إنه رؤوف رحيم.

المقالة السابعة والعشرون في أن الخير و الشر ثمرتان

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أجعل الخير والشر ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة، أحد الغصنين يثمر حلواً والآخر مرّاً، فاترك البلاد والأقاليم ونواحي الأرض التي يحمل إليها هذه الثمار المأخوذة من هذه الشجرة، وابتعد منها ومن أهلها واقترب من الشجرة وكن سائسها وخدامها القائم عندها، وأعرف الغصنين والثمرتين والجانبين، فكن إلى جانب الغصن المثمر حلواً، فحينئذ يكون غذاؤك وقوتك منها، واجتنب أن تقدم إلى جانب الغصن الآخر فتأكل من ثمرته فتهلك من مرارتها، فإذا دمت على هذا كنت في دعة وأمن وراحة وسلامة من الآفات كلها، إذ الآفات وأنواع البلايا تتولد من تلك الثمرة المرة، وإذا غبت عن تلك الشجرة وهمت في الآفاق وقدم بين يديك من تلك الثمرتين وهي مخلطة غير متميزة الحلوة من المرة هنا فتناولت منها، فربما وقعت يدك على المرة فأدنيتهما من فيك فأكلت منها جزءاً ومضغته، فسرت المرة إلى أعماق لهواتك وباطن حلقك وخياشيمك، فعملت فيك وسرت في عروقك وأجزاء جسدك فهلكت بها، ولفظك الباقي من فيك وغسل أثره لا ينفع لا ويدفع عنك ما قد سرى في جسدك ولا ينفك، وإن أكلت ابتداء من الثمرة الحلوة وسرت حلاوتها في أجزاء جسدك وانتفعت بها وسررت فلا يفيك ذلك، فلا بد تتناول غيرها ثانياً، فلا تأمن أن تكون الثانية من المرة فيحل بك ما ذكرته لك، فلا خير في البعد عن الشجرة والجهل بثمرتها والسلامة في قربها والقيام معها، فالخير والشر بفعل الله عز وجل، والله هو فاعلها ومجريهما. قال الله عز وجل : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ } .الصفات96. وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الله خلق الجازر وجزوره) وأعمال العباد خلق الله عز وجل وكسبهم. قال تعالى : { ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } .النحل32. سبحانه ما أكرمه وأرحمه أضاف العمل إليهم وأنهم استحقوا الدخول إلى الجنة بعملهم، وهو بتوفيقه ورحمته لهم في الدنيا والآخرة.

قال صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة أحد بعمله، فقيل له ولا أنت يا رسول الله؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته، ووضع يده على رأسه) مروى ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها، فإذا كنت طائعاً لله عز وجل ممتثالاً لأمره منتهياً لنهييه مسلماً له في قدره، حماك عن شره وتفضل عليك بخيره وحماك عن الأسواء جميعها ديناً ودنياً. أما دنيا فقوله تعالى : { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } .يوسف24. وأما ديناً فقوله عز وجل : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا } .النساء147. مؤمن شاكر ما يفعل البلاء عنده وهو إلى العافية أقرب من البلاء، لأنه في حمل المزيد أيضاً لأنه شاكر. قال الله عز وجل : { لئن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } .إبراهيم7. فإيمانك يطفى لهب النار في الآخرة التي هي عقوبة كل عاص، فكيف لا يطفى نار البلايا في الدنيا؟؟ اللهم إلا أن يكون العبد من المجذوبين المختارين للولاية والاصطفاء والاجتباء، فلا بد من البلاء ليصفي به من خبث الهوى والميل إلى الطباع، والركون إلى شهوات النفس ولذاتها، والطمأنينة إلى الخلق والرضا بقربهم، والسكون إليهم والثبوت معهم والفرح بهم، فيبتلى حتى يذوب جميع ذلك، ويتنظف القلب بخروج الكل،

ويبقى توحيد الرب عزَّ وجلَّ ومعرفته وموارد الغيب من أنواع الأسرار والعلوم وأنوار القرب، لأنه بيت لا يسعه اثنان، قال الله عزَّ وجلَّ : {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}. الأحزاب 4. وقال تعالى: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً}. النمل 34. فأخرجوا الأعرزة عن طيب المنازل ونعيم العيش، وكانت الولاية على القلب للشيطان والهوى والنفس والجوارح متحركة بأمرهم من أنواع المعاصي والأباطيل والترهات فزالت تلك الولاية فسكنت الجوارح وفرغت دار الملك التي هي القلب وتنظفت الساحة التي هي الصدر. فأما القلب فصار مسكناً للتوحيد والمعرفة والعلم. وأما الساحة فمهبط الموارد والعجائب من الغيب، كل ذلك نتيجة البلايا وثمراتها، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمتل فالأمتل) وقال صلى الله عليه وسلم : (أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خوفاً) فكل من قرب من الملك اشتد خطره وحذره، لأنه في مرأى من الملك لا يخفى عليه تصاريفه وحركاته. فإن قلت: فالخليقة عند الله عزَّ وجلَّ بأجمعهم كشخص واحد لا يخفى عليه منهم شيء، فأبي فائدة لهذا الكلام؟

فنقول لك : لما علت منزلته وشرفت رتبته عظم خطره، لأنه وجب عليه شكر ما أولاه من جسيم نعمه وفضله فأدنى الالتفات عن خدمته تقصير في شكره وذلك نقصان في طاعته. قال الله عزَّ وجلَّ : {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}. الأحزاب 30. قال ذلك لهن لتمام نعمه عزَّ وجلَّ عليهن باتصالهن بالنبي صلى الله عليه وسلم فكيف من كان مواصلاً بالله عزَّ وجلَّ وقربه، تعالى الله علواً كبيراً عن التشبيه بخلقه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. الشورى 11. والله الهادي.

المقالة الثامنة والعشرون في تفصيل أحوال المرید

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أتريد الراحة والسرور والدعة والحبور، والأمن والسكون والنعيم والدلال وأنت بعد في كير السبك والتذويب وتمويت النفس ومجانبة الهوى وإزالة المرادات والأعواض دنيا وأخرى وقد بقيت فيك بقية من ذلك ظاهرة لا ئحة؟؟ على رسلك يا مستعجل مهلاً مهلاً، يا مترقب الباب مسدود إلى ذلك، وقد بقيت عليك منه وفيك ذرة ومنه المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، أنت مسدود عن ذلك ما بقي عليك من الدنيا مقدار مص نواة، والدنيا هواك ومرادك، ورؤيتك بشئ من الأشياء أو طلبك بشئ من الأشياء وتشوق نفسك إلى شئ من الأعواض دنيا وأخرى، فما دام فيك شئ من ذلك فأنت في باب الإفناء، فاسكن حتى يحصل الفناء على التمام والكمال، فتخرج من الكير وتكمل صياغتك وتجلي وتكسى وتطيب وتبخر، ثم ترفع إلى الملك الأكبر فتخاطب : {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} يوسف 54. فتؤانس وتلاطف، وتطعم من الفضل ومنه وتسقى وتقرب وتدنى وتطلع على الأسرار وهي عنك لا

تخفى فتغتني بما نعطي من ذلك عن جميع الأشياء. ألا ترى إلى قراضة الذهب متفرقة مبتذلة متداولة غادية رائحة في أيدي العطارين والبقالين والقصابين والدباغين والنقاطين والكناسين والكفافين أصحاب الصنائع النفيسة والرذيلة الدنية الخبيثة، ثم تجمع فتجعل في كير الصائغ فتذوب هناك بإشعال النار عليها، ثم تخرج منه فتطرق وترقق وتطلع وتصاك فتجعل حلياً، ثم تجلى وتطيب فتترك في خير المواضع والأمكنة من وراء الأغلاق في الخزائن والصناديق والأحقاق وتحلى بها العروس وتزين وتكرم، وقد تكون العروس للملك الأعظم فتنتقل القراضة من هذه إلى قرب الملك ومجلسه بعد السبك والدق، هكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار فيك ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال قربت إلى مولاك عزَّ وجلَّ في الدنيا، فتتعم بالمعرفة والعلوم والأسرار، وتسكن في الآخرة دار السلام مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين في جوار الله وداره وقربه عزَّ وجلَّ، فاصبر ولا تستعجل، وأرض بالقضاء ولا تتهم، فسينالك برد عفو الله ولطفه وكرمه بمنه تعالى.

المقالة التاسعة والعشرون

في قوله صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : يؤمن العبد بالله ويسلم الأمور كلها إليه عزَّ وجلَّ، ويعتقد تسهيل الرزق منه وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويؤمن بقوله عزَّ وجلَّ { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } .الطلاق 2-3. ويقول ذلك ويؤمن به وهو في حال العافية والغنى ثم يبتليه الله عزَّ وجلَّ بالبلاء والفقر فيأخذ في السؤال والتضرع فلا يكشفهما عنه فحينئذ يتحقق قوله صلى الله عليه وسلم : (كاد الفقر أن يكون كفراً) فمن تلطف الله به كشف عنه ما به فأدركه بالعافية والغنى ويوفقه للشكر والحمد والثناء ويدبر له ذلك إلى اللقاء . ومن يرد الله فتنته يديم بلاءه وفتنته وفقره فيقطع عنه مدد إيمانه فيكفر بالاعتراض والتهمة له عزَّ وجلَّ والشك في وعده فيموت كافراً بالله عزَّ وجلَّ جاحداً لأياته ومسخطاً على ربه، وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل جمع الله له بين فقر الدنيا وعذاب الآخرة) نعوذ بالله من ذلك وهو الفقر المنسي الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم * والرجل الثاني هو الذي أراد الله عزَّ وجلَّ اصطفاؤه واجتباؤه وجعله من خواصه وأحبائه وأخلائه ووارث أنبيائه وسيد أوليائه ومن عظماء عباده و علمائهم وحكمائهم وشفعائهم وشيوخهم ومتبوعهم ومعلمهم وهاديهم إلى مولاهم ومرشدهم إلى سبل الهدى واجتناب سبل الردى فأرسل إليه جبال الصبر وبحار الرضا والموافقة والغنى في قضائه وفعله ثم يدركه بجزيل العطاء ويدلله في آناء الليل وأطراف النهار في الجلوة والخلوة في الظاهر مرة والباطن أخرى بأنواع اللطف وفنون الجذبات فيتصل له ذلك إلى حين اللقاء والله الهادي.

المقالة الثلاثون

في النهي عن قول الرجل أي شيء أعمل و ما الحيلة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ما أكثر ما نقول : أي شئ أعمل؟؟ وما الحيلة؟؟ فيقال لك : قف مكانك ولا تجاوز حدك حتى يأتيك الفرج ممن أمرك بالقيام فيما أنت فيه. قال الله عزَّ وجلَّ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} . آل عمران 200. أمرك بالصبر يا مؤمن ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة له ثم حذرَكَ تركه فقال : {واتقوا الله} في ترك ذلك، أي لا تتركوا الصبر فإن الخير والسلامة فيه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد). وقيل : كل شئ ثوابه بمقدار إلا ثواب الصبر فإنه جزاف غير مقدر لقوله تعالى : {إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} . الزمر 10. فإذا اتقيت الله عزَّ وجلَّ حفظك للصبر ومحافظة الحدود وأنجز لك ما وعدك في كتابه وهو قوله عزَّ وجلَّ : {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} . الطلاق 2-3. وكنت بصبرك حتى يأتيك الفرج من المتوكلين وقد وعدك الله عزَّ وجلَّ بالكفاية فقال : {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} . الطلاق 3. وكنت مع صبرك وتوكلك من المحسنين وقد وعدك بالجزاء فقال عزَّ وجلَّ : {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} . القصص 14. ويحبك الله مع ذلك لأنه قال : {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} . البقرة 195. فالصبر رأس كل خير وسلامة دنيا وأخرى، ومنه يترقى المؤمن إلى حالة الرضى والموافقة ثم الفناء في أفعال الله عزَّ وجلَّ حالة البدلية والغيبة، فاحذر أن تتركه فيخذلك في الدنيا والآخرة ويفوتك خيرهما نعوذ بالله من ذلك.

المقالة الحادية والثلاثون

في البغض في الله

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فأعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت فيهما مبغوضة و أنت تبغضه فأبشر بموافقتك الله عزَّ وجلَّ ورسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى، تبغضه بهواك ظالماً له يبغضك إياه، وعاص الله عزَّ وجلَّ ورسوله تخالف لهما فتب إلى الله عزَّ وجلَّ من بغضك واسأله عزَّ وجلَّ محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له عزَّ وجلَّ. وكذلك أفعَل فيمن تحبه يعني أعرض أعماله على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحبه. وإن كانت مبغوضة فابغضه. كيلا تحبه بهواك وتبغضه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال عزَّ وجلَّ : {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} . ص 26.

من طرف محمد الحسيني في الأربعاء يونيو 04, 2008 1:45 pm

المقالة السابعة والعشرون في أن الخير و الشر ثمرتان

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أجعل الخير والشر ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة، أحد الغصنين يثمر حلواً والآخر مرّاً، فاترك البلاد والأقاليم ونواحي الأرض التي يحمل إليها هذه الثمار المأخوذة من هذه الشجرة، وابتعد منها ومن أهلها واقترب من الشجرة وكن سائسها وخدامها القائم عندها، وأعرف الغصنين والثمرتين والجانبين، فكن إلى جانب الغصن المثمر حلواً، فحينئذ يكون غذاؤك وقوتك منها، واجتنب أن تقدم إلى جانب الغصن الآخر فتأكل من ثمرته فتهلك من مرارتها، فإذا دمت على هذا كنت في دعة وأمن وراحة وسلامة من الآفات كلها، إذ الآفات وأنواع البلايا تتولد من تلك الثمرة المرة، وإذا غبت عن تلك الشجرة وهمت في الآفاق وقدم بين يديك من تلك الثمرتين وهي مخلطة غير متميزة الحلوة من المرة هنا فتناولت منها، وربما وقعت يدك على المرة فأدنيتهما من فيك فأكلت منها جزءاً ومضغته، فسرت المرة إلى أعماق لهواتك وباطن حلقك وخياشيمك، فعملت فيك وسرت في عروقك وأجزاء جسدك فهلكت بها، ولفظك الباقي من فيك وغسل أثره لا ينفع لا ويدفع عنك ما قد سرى في جسدك ولا ينفعك، وإن أكلت ابتداء من الثمرة الحلوة وسرت حلاوتها في أجزاء جسدك وانتفعت بها وسررت فلا يكفيك ذلك، فلا بد تتناول غيرها ثانياً، فلا تأمن أن تكون الثانية من المرة فيحل بك ما ذكرته لك، فلا خير في البعد عن الشجرة والجهل بثمرتها والسلامة في قربها والقيام معها، فالخير والشر بفعل الله عز وجل، والله هو فاعلهما ومجريهما. قال الله عز وجل : {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}. الصافات 96. وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الله خلق الجازر وجزوره) وأعمال العباد خلق الله عز وجل وكسبهم. قال تعالى : {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. النحل 32. سبحانه ما أكرمه وأرحمه أضاف العمل إليهم وأنهم استحقوا الدخول إلى الجنة بعملهم، وهو بتوفيقه ورحمته لهم في الدنيا والآخرة.

قال صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل الجنة أحد بعمله، فقيل له ولا أنت يا رسول الله؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته، ووضع يده على رأسه) مروى ذلك في حديث عائشة رضي الله عنها، فإذا كنت طائعاً لله عز وجل ممتثالاً لأمره منتهياً لنهييه مسلماً له في قدره، حماك عن شره وتفضل عليك بخيره وحماك عن الأسواء جميعها ديناً ودنياً. أما دنيا فقوله تعالى : {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}. يوسف 24. وأما ديناً فقوله عز وجل : {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}. النساء 147. مؤمن شاكر ما يفعل البلاء عنده وهو إلى العافية أقرب من البلاء، لأنه في حمل المزيد أيضاً لأنه شاكر. قال الله عز وجل : {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}. إبراهيم 7. فإيمانك يطفى لهب النار في الآخرة التي هي عقوبة كل عاص، فكيف لا يطفى نار البلايا في الدنيا؟؟ اللهم إلا أن يكون العبد من المجذوبين المختارين للولاية والاصطفاء والاجتباء، فلا بد من البلاء ليصفي به من خبث الهوى والميل إلى الطباع، والركون إلى شهوات النفس ولذاتها، والطمأنينة إلى الخلق والرضا بقربهم، والسكون إليهم والثبوت معهم والفرح بهم، فيبتلى حتى يذوب جميع ذلك، ويتنظف القلب بخروج الكل، ويبقى توحيد الرب عز وجل ومعرفة وموارده الغيب من أنواع الأسرار والعلوم وأنوار القرب،

لأنه بيت لا يسعه اثنان، قال الله عزَّ وجلَّ : {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}. الأحزاب 4. وقال تعالى: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةً أَهْلَهَا أَذِلَّةً}. النمل 34. فأخرجوا الأعرزة عن طيب المنازل ونعيم العيش، وكانت الولاية على القلب للشيطان والهوى والنفس والجوارح متحركة بأمرهم من أنواع المعاصي والأباطيل والترهات فزالت تلك الولاية فسكنت الجوارح وفرغت دار الملك التي هي القلب وتنظفت الساحة التي هي الصدر. فأما القلب فصار مسكناً للتوحيد والمعرفة والعلم. وأما الساحة فمهبط الموارد والعجائب من الغيب، كل ذلك نتيجة البلايا وثمراتها، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل) وقال صلى الله عليه وسلم : (أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خوفاً) فكل من قرب من الملك اشتد خطره وحذره، لأنه في مرأى من الملك لا يخفى عليه تصاريفه وحركاته. فإن قلت: فالخليفة عند الله عزَّ وجلَّ بأجمعهم كشخص واحد لا يخفى عليه منهم شيء، فأبي فائدة لهذا الكلام؟

فنقول لك : لما علت منزلته وشرفت رتبته عظم خطره، لأنه وجب عليه شكر ما أولاه من جسيم نعمه وفضله فأدنى الالتفات عن خدمته تقصير في شكره وذلك نقصان في طاعته. قال الله عزَّ وجلَّ : {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}. الأحزاب 30. قال ذلك لهن لتمام نعمه عزَّ وجلَّ عليهن باتصالهن بالنبي صلى الله عليه وسلم فكيف من كان مواصلاً بالله عزَّ وجلَّ وقربه، تعالى الله علواً كبيراً عن التشبيه بخلقه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. الشورى 11. والله الهادي.

المقالة الثامنة والعشرون في تفصيل أحوال المرید

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أتريد الراحة والسرور والدعة والحبور، والأمن والسكون والنعيم والدلال وأنت بعد في كير السبك والتذويب وتمويت النفس ومجانبة الهوى وإزالة المرادات والأعواض دنيا وأخرى وقد بقيت فيك بقية من ذلك ظاهرة لا ئحة؟؟؟ على رسلك يا مستعجل مهلاً مهلاً، يا مترقب الباب مسدود إلى ذلك، وقد بقيت عليك منه وفيك ذرة ومنه المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، أنت مسدود عن ذلك ما بقي عليك من الدنيا مقدار مص نواة، والدنيا هواك ومرادك، ورؤيتك بشئ من الأشياء أو طلبك بشئ من الأشياء وتشوق نفسك إلى شئ من الأعواض دنيا وأخرى، فما دام فيك شئ من ذلك فأنت في باب الإفناء، فاسكن حتى يحصل الفناء على التمام والكمال، فتخرج من الكير وتكمل صياغتك وتجلي وتكسى وتطيب وتبخر، ثم ترفع إلى الملك الأكبر فتخاطب : {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} يوسف 54. فتؤانس وتلاطف، وتطعم من الفضل ومنه وتسقى وتقرب وتدنى وتطلع على الأسرار وهي عنك لا تخفى فتغتني بما نعطي من ذلك عن جميع الأشياء. ألا ترى إلى قرأضة الذهب متفرقة مبتذلة

متداولة غادية رائحة في أيدي العطارين والبقالين والقصابين والدباغين والنقاطين والكناسين والكفافين أصحاب الصنائع النفيسة والرذيلة الدنية الخبيثة، ثم تجمع فتجعل في كير الصائغ فتذوب هناك بإشعال النار عليها، ثم تخرج منه فتطرق وترقق وتطلع وتصاك فتجعل حلياً، ثم تجلى وتطيب فتترك في خير المواضع والأمكنة من وراء الأغلاق في الخزائن والصناديق والأحقاق وتحلى بها العروس وتزين وتكرم، وقد تكون العروس للملك الأعظم فتنتقل القراضة من هذه إلى قرب الملك ومجلسه بعد السبك والدق، هكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار فيك ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال قربت إلى مولاك عز وجل في الدنيا، فتتعم بالمعرفة والعلوم والأسرار، وتسكن في الآخرة دار السلام مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في جوار الله وداره وقربه عز وجل، فاصبر ولا تستعجل، وأرض بالقضاء ولا تتهم، فسينالك برد عفو الله ولطفه وكرمه بمنه تعالى.

المقالة التاسعة والعشرون

في قوله صلى الله عليه وسلم كاد الفقر أن يكون كفرا

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : يؤمن العبد بالله ويسلم الأمور كلها إليه عز وجل، ويعتقد تسهيل الرزق منه وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويؤمن بقوله عز وجل { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } .الطلاق 2-3. ويقول ذلك ويؤمن به وهو في حال العافية والغنى ثم يبتليه الله عز وجل بالبلاء والفقر فيأخذ في السؤال والتضرع فلا يكشفهما عنه فحينئذ يتحقق قوله صلى الله عليه وسلم : (كاد الفقر أن يكون كفراً) فمن تطف الله به كشف عنه ما به فأدركه بالعافية والغنى ويوفقه للشكر والحمد والثناء ويديم له ذلك إلى اللقاء . ومن يرد الله فتنته يديم بلاءه وفتنته وفقره فيقطع عنه مدد إيمانه فيكفر بالاعتراض والتهمة له عز وجل والشك في وعده فيموت كافراً بالله عز وجل جاحداً لآياته ومسخطاً على ربه، وإليه أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل جمع الله له بين فقر الدنيا وعذاب الآخرة) نعوذ بالله من ذلك وهو الفقر المنسي الذي استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم * والرجل الثاني هو الذي أراد الله عز وجل اصطفاؤه واجتباؤه وجعله من خواصه وأحبائه وأخلائه ووارث أنبيائه وسيد أوليائه ومن عظماء عباده و علمائهم وحكمائهم وشفعائهم وشيوخهم ومتبوعهم ومعلمهم وهاديهم إلى مولاهم ومرشدهم إلى سبل الهدى واجتناب سبل الردى فأرسل إليه جبال الصبر وبحار الرضا والموافقة والغنى في قضائه وفعله ثم يدركه بجزيل العطاء ويدلله في آناء الليل وأطراف النهار في الجلوة والخلوة في الظاهر مرة والباطن أخرى بأنواع اللطف وفنون

الجدبات فيتصل له ذلك إلى حين اللقاء والله الهادي.

المقالة الثلاثون

في النهي عن قول الرجل أي شيء أعمل و ما الحيلة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ما أكثر ما نقول : أي شئ أعمل؟؟ وما الحيلة؟؟ فيقال لك : قف مكانك ولا تجاوز حدك حتى يأتيك الفرج ممن أمرك بالقيام فيما أنت فيه. قال الله عزَّ وجلَّ : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } . آل عمران 200. أمرك بالصبر يا مؤمن ثم بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة له ثم حذرك تركه فقال : { واتقوا الله } في ترك ذلك، أي لا تتركوا الصبر فإن الخير والسلامة فيه، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد). وقيل : كل شئ ثوابه بمقدار إلا ثواب الصبر فإنه جزاف غير مقدر لقوله تعالى : { إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } . الزمر 10. فإذا اتقيت الله عزَّ وجلَّ حفظك للصبر ومحافظة الحدود وأنجز لك ما وعدك في كتابه وهو قوله عزَّ وجلَّ : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } . الطلاق 2-3. وكنت بصبرك حتى يأتيك الفرج من المتوكلين وقد وعدك الله عزَّ وجلَّ بالكفاية فقال : { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } . الطلاق 3. وكنت مع صبرك وتوكلك من المحسنين وقد وعدك بالجزاء فقال عزَّ وجلَّ : { وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ } . القصص 14. ويحبك الله مع ذلك لأنه قال : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } . البقرة 195. فالصبر رأس كل خير وسلامة دنيا وأخرى، ومنه يترقى المؤمن إلى حالة الرضى والموافقة ثم الفناء في أفعال الله عزَّ وجلَّ حالة البدلية والغيبة، فاحذر أن تتركه فيخذلك في الدنيا والآخرة ويفوتك خيرهما نعوذ بالله من ذلك.

المقالة الحادية والثلاثون

في البغض في الله

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا وجدت في قلبك بغض شخص أو حبه فأعرض أعماله على الكتاب والسنة، فإن كانت فيهما مبعوضة و أنت تبغضه فأبشر بموافقتك الله عزَّ وجلَّ ورسوله، وإن كانت أعماله فيهما محبوبة وأنت تبغضه فاعلم بأنك صاحب هوى، تبغضه بهواك ظالماً له ببغضك إياه، وعاصٍ لله عزَّ وجلَّ ولرسوله تخالف لهما فتب إلى الله عزَّ وجلَّ

من بغضك واسأله عزَّ وجلَّ محبة ذلك الشخص وغيره من أحبائه وأوليائه وأصفيائه
والصالحين من عباده، لتكون موافقاً له عزَّ وجلَّ. وكذلك أفعل فيمن تحبه يعني أعرض أعماله
على الكتاب والسنة فإن كانت محبوبة فيهما فأحبه. وإن كانت مبغوضة فابغضه. كيلا تحبه
بهواك وتبغضه بهواك وقد أمرت بمخالفة هواك قال عزَّ وجلَّ : {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ} .ص26.



المقالة الثانية والثلاثون في عدم المشاركة في محبة الحق

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ما أكثر ما تقول كل من أحبه لا تدوم محبتي إياه
فيحال بيننا إما بالغبية أو بالموت أو بالعداوة وأنواع المال بالتلف والفوات من اليد، فيقال لك :
أما تعلم يا محبوب الحق المعنى المنظور إليه المغار عليه، ألم تعلم أن الله عزَّ وجلَّ غيور خلقك
وتروم أن تكون لغيره، أما سمعت قوله عزَّ وجلَّ : {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} .المائدة54. وقوله تعالى :
{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} .الذاريات56. أما سمعت قول الرسول صلى الله عليه
وسلم : (إذا أحب الله عبدا ابتلاه فإن صبر افتناه. قيل يا رسول الله و ما افتناه. قال لم يذر له مالا
ولا ولدا). وذلك لأنه إذا كان له مال وولد أحبهما فتنقص وتجزى فتصير مشتركة بين الله عزَّ
وجلَّ وبين غيره والله تعالى لا يقبل الشريك وهو غيور قاهر فوق كل شيء غالب لكل شيء فيهلك
شريكه ويعدمه ليخلص قلب عبده له من غير شريك فيتحقق حينئذ قوله عزَّ وجلَّ : {يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ} .المائدة54. حتى إذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد
والذات والشهوات وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات والمنازل والمقامات
والجنات والدرجات والقربات والزلفات فلا يبقى في القلب إرادة ولا أمنية يصير كالإناء المنتمل
الذي لا يثبت فيه مائع لأنه أنكسر لفعل الله عزَّ وجلَّ كلما تجمعت فيه إرادة كسرهما فعل الله
وغيرته فضربت حوله سرادقات العظمة والجبروت والهيبة وأحضرت من دونها خنادق
الكبرياء والسطوة فلم يخلص إلى القلب إرادة شيء من الأشياء والكرامات والحكم والعلم
والعبادات فإن جميع ذلك يكون خارج القلب فلا يغار الله عزَّ وجلَّ بل يكون جميع ذلك كرامة

من الله لعبده ولطفاً به ونعمة ورزقا ومنفعة للواردين عليه فيكرمون به ويرحمون ويحفظون لكرامته على الله عزَّ وجلَّ فيكون خفيراً لهم وكنفاً وحرزاً وشفيعاً دنياً وأخرى.

المقالة الثالثة والثلاثون في تقسيم الرجال إلى أربعة أقسام

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : الناس أربعة رجال :

رجل : لا لسان له ولا قلب وهو العاصي الغر الغبي لا يعبأ الله به، لا خير فيه، وهو وأمثاله حثالة لا وزن لهم إلا أن يعممهم الله عزَّ وجلَّ برحمته، فيهدي قلوبهم للإيمان به ويحرك جوارحهم بالطاعة له عزَّ وجلَّ. فأحذر أن تكون منهم، ولا تكثر بهم ولا تقم فيهم فإنهم أهل العذاب والغضب والسخط سكان النار وأهلها نعوذ بالله عزَّ وجلَّ منهم، إلا أن تكون من العلماء بالله عزَّ وجلَّ ومن معلمي الخير وهداة الدين وقواده ودعاته، فدونك فأتهم وادعهم إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ، وحذرهم معصيته، فتكتب عند الله حينئذ جهيذاً، فتعطى ثواب الرسل والأنبياء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (لأن يهدي الله بهداك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس).

الرجل الثاني : رجل له لسان بلا قلب فينطق بالحكمة ولا يعمل بها، يدعو الناس إلى الله وهو يفر منه عزَّ وجلَّ، يستقبح عيب غيره ويدوم هو على مثله في نفسه، يظهر للناس تنسكا وبيارز الله عزَّ وجلَّ بالعظائم من المعاصي، إذا خلا كأنه ذئب عليه ثياب، وهو الذي حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (أخوف ما أخاف على أمتي من منافق عليم اللسان). وفي حديث آخر : (أخوف ما أخاف على أمتي من علماء السوء). نعوذ بالله من هذا، فابعد منه وهرول، لئلا يختطفك بلذيق لسانه فتحرقك نار معاصيه، ويقتلك نتن باطنه وقلبه.

والرجل الثالث : قلب بلا لسان، وهو مؤمن ستره الله عزَّ وجلَّ عن خلقه، وأسبل عليه كنفه، وبصره بعيوب نفسه، ونور قلبه، وعرفه غوائل مخالطة الناس وشؤم الكلام والنطق، وتيقن أن السلامة في الصمت والانزواء والانفراد، وتسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من صمت نجا). وتسمع قول بعض العلماء : العبادة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت فهذا رجل ولي الله عزَّ وجلَّ، في ستر الله محفوظاً ذو سلامة وعقل وافر، جليس الرحمن منعم عليه، فالخير كل الخير عنده، فدونك ومصاحبته ومخالطته وخدمته والتحبب إليه بقضاء حوائج تسنح له ومرافق يرتقق بها، فيحبك الله ويصفيك، ويدخلك في زمرة أحبائه وعباده الصالحين ببركته إن شاء الله تعالى.

والرجل الرابع : المدعو في الملكوت بالعظيم كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من تعلم ، وعمل ، وعلم ، دعي في الملكوت عظيماً). وهو العالم بالله عزَّ وجلَّ وآياته، استودع الله عزَّ وجلَّ قلبه غرائب علمه، وأطلعته على أسرار طواها عن غيره، واصطفاه

واجتباؤه وجذبه إليه ورقاه، وإلى باب قربه هداه، وشرح صدره لقبول تلك الأسرار والعلوم، وجعله جهبذا وداعياً للعباد ونذيراً لهم وحجة فيهم، هادياً مهدياً شافعاً مشفعاً صادقاً صديقاً، بدلاً لرسله وأنبيائه عليهم صلواته وسلامه وتحياته وبركاته. فهذه هي الغاية القصوى في بني آدم، لا منزلة فوق منزلته إلا النبوة، فعليك به وأحذر أن تخالفه وتنافره وتجانبه وتعاديه وتترك القبول منه والرجوع إلى نصيحته وقوله، فإن السلامة فيما يقول عنده، والهلاك والضلال عند غيره إلا من يوفقه الله عزَّ وجلَّ ويمده بالسداد والرحمة.

فقد قسمت لك الناس، فانظر لنفسك إن كنت ناظراً، واحترز لها إن كنت محترزاً لها شقيقاً عليها، هداها الله وإياك لما يحبه ويرضاه.

المقالة الرابعة والثلاثون

في النهي عن السخط على الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ما أعظم تسخطك على ربك و تهمتك له عزَّ وجلَّ، و اعتراضك عليه و انتسابك له عزَّ وجلَّ بالظلم، واستبطائك في الرزق والغنى وكشف الكروب والبلوى، أما تعلم أن لكل أجل كتاب، ولكل زيادة بلية وكربة غاية منتهى ونفاد، لا يتقدم ذلك ولا يتأخر، أوقات البلى لا تقلب فتصير عوافى ووقت البؤس لا ينقلب نعيماً، وحالة الفقر لا تستحيل غنى.

أحسن الأدب وألزم الصمت والصبر والرضا والموافقة لربك عزَّ وجلَّ، وتب عن تسخطك عليه وتهمتك له في فعله، فليس هناك استيفاء وانتقام من غير ذنب، ولا عرض على الطبع كما هو في حق العبيد بعضهم في بعض، هو عزَّ وجلَّ منفرد بالأزل وسبق الأشياء، خلقها وخلق مصالحها ومفاسدها و علم ابتداءها وانتهاءها وانقضاءها، وهو عزَّ وجلَّ حكيم في فعله متقن في صنعه لا تناقض في فعله، لا يفعل عبثاً ولا يخلق باطلاً لعباً، ولا تجوز عليه النقائص ولا اللوم في أفعاله، فانتظر الفرج حتى إن عجزت عن موافقته وعن الرضا والغنى في فعله حتى يبلغ الكتاب أجله، فتسفر الحالة عن ضدها بمرور الزمان وانقضاء الأجال، كما ينقضي الشتاء فيسفر عن الصيف، وينقضي الليل فيسفر عن النهار، فإذا طلبت نور ضوء النهار ونوره بين العشاءين لم تعطه، بل يزداد في ظلمة الليل حتى إذا بلغت الظلمة غايتها وطلع الفجر وجاء النهار بضوئه طلبت ذلك وأردته وسكت عنه وكرهته، فإن طلبت إعادة الليل حينئذ لم تجب دعوتك ولم تعطه لأنك طلبت الشيء في غير حينه ووقته فتبقى حسيراً منقطعاً متسخطاً خجلاً، فأرخ هذا كله وألزم الموافقة وحسن الظن بربك عزَّ وجلَّ والصبر الجميل، فما كان لك لا تسلبه، وما ليس لك لا تعطاه. لعمرى إنك تدعو وتبتهل إلى ربك عزَّ وجلَّ بالدعاء والتضرع وهما عبادة وطاعة امتثالاً لأمره عزَّ وجلَّ في قوله تعالى : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } . غافر 60. وقوله تعالى : { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } . النساء 32. وغير ذلك من الآيات والأخبار، أنت تدعو وهو يستجيب لك عند حينه وأجله إذا أراد وكان لك في ذلك مصلحة في دنياك وأخرأك ويوافق في ذلك قضاءه

وانتهاء أجله، لا تتهمه في تأخير الإجابة ولا تسأم من دعائه، فإنك إن لم تربح لم تخسر، وإن لم يجبك عاجلاً أثابك أجلاً، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : (والعبد يرى في صحائفه حسنات يوم القيامة لا يعرفها فيقال له إنها بدل سؤالك في الدنيا الذي لم يقدر قضاؤه فيها) أو كما ورد. ثم أقل أحوالك أنك تكون ذاكراً لربك عز وجلّ موحداً له حيث تسأله ولا تسأل أحداً غيره، ولا تترك حاجتك لغيره تعالى، فأنت بين الحالتين في زمانك كله ليلاك ونهارك وصحتك وسقمك وبؤسك ونعمائك وشدتك ورخائك، وإما أن تمسك عن السؤال، وترضى بالقضاء وتوافق وتسترسل لفعله عز وجلّ، كالميت بين يدي الغاسل، والطفل الرضيع في يدي الطئر، والكرة بين يدي الفارس يقلبها بصولجانها، فيقلبك القدر كيف يشاء، إن كان النعماء فمك الشكر والثناء ومنه عز وجلّ المزيد في العطاء، كما قال تعالى : {لئن شكرتم لأزيدنكم} إبراهيم 7. وإن كان البأساء فالصبر والموافقة منك بتوفيقه والتثبيت والنصرة والصلاة والرحمة منه عز وجلّ بفضله وكرمه، كما قال عز من قائل: {إن الله مع الصابرين} البقرة 153. الأنفال 46. بنصره وتثبيتته، وهو لعبده ناصر له على نفسه وهواه وشيطانه. وقال تعالى: {إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم} محمد 7. إذا نصرت الله في مخالفة نفسك وهواك بترك الاعتراض عليه والسخط بفعله فيك وكنت خصماً لله على نفسك سيافاً عليها كلما تحركت بكفرها وشركها حززت رأسها بصبرك وموافقك لربك والطمأنينة إلى فعله ووعده والرضا بهما كان عز وجلّ لك معيناً. وأما الصلاة والرحمة، فقوله عز وجلّ : {وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون} البقرة 155-157. والحالة الأخرى أنك تبتهل إلى ربك عز وجلّ بالدعاء والتضرع إعظماً له وامتنالاً لأمره، وفيه وضع الشئ في موضعه، لأنه ندبك إلى سؤاله والرجوع إليه، وجعل ذلك مستراحاً ورسولاً منك إليه وموصلة ووسيلة لديه بشرط ترك التهمة والسخط عليه عند تأخير الإجابة إلى حينها، اعتبر ما بين الحالتين ولا تكن ممن تجاوز عن حديهما، فإنه ليس هناك حالة أخرى، فاحذر أن تكون من الظالمين المعتدين فيهلكك عز وجلّ ولا يبالي كما أهلك من مضى من الأمم السالفة في الدنيا بتشديد بلائه وفي الآخرة بأليم عذابه

المقالة الخامسة والثلاثون في الورع

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : عليك بالورع وإلا فالهلاك في زيقك ملازم لك لا تنجو منه أبداً إلا أن يتغمذك الله تعالى برحمته، فقد ثبت في الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن ملاك الدين الورع، وهلاكه الطمع، وإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، كالرابع إلى جنب الزرع يوشك أن يمد فاه إليه لا يكاد أن يسلم الزرع منه) وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : كنا نترك سبعين باباً من المباح مخافة أن نقع في الجناح. وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام، فعلوا ذلك تورعاً في مقاربة الحرام أخذاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (لكل ملك حمى) وإن حمى الله محارمه، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، فمن دخل حصن الملك فجاز الباب الأول ثم الثاني والثالث حتى قرب من سدته خير ممن وقف على

الباب الأول الذي يلي البر، فإنه إن أغلق عنه غلق الباب الثالث لم يضره وهو من وراء بابين من أبواب القصر ومن دونه حراس الملك وجنده، وأما إذا كان على الباب الأول فأغلقوا عنه بقى في البر وحده فأخذته الذئاب والأعداء وكان من الهالكين، فهكذا من سلك العزيمة ولازمها. إن سلب عنه مدد التوفيق والرعاية وانقطعت عنه حصل في الرخص ولم يخرج عن الشرع. فإذا أدركته المنية كان على العبادة والطاعة ويشهد له بخير العمل، ومن وقف على الرخص ولم يتقدم إلى العزيمة إن سلب عنه التوفيق فقطعت عنه أمداه فغلب الهوى عليه وشهوات النفس، فتناول الحرام خرج من الشرع، فصار في زمرة الشياطين أعداء الله عزَّ وجلَّ الضالين عن سبل الهدى، فإن أدركته المنية قبل التوبة كان من الهالكين إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته وفضله، فالخطر في القيام مع الرخص، والسلامة كل السلامة مع العزيمة، والله الهادي إلى سواء الطريق.

المقالة السادسة والثلاثون

في بيان الدنيا والآخرة وما ينبغي أن يعمل فيهما

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أجعل آخرتك رأس مالك ودنياك ربحه، وأصرف زمانك أولاً في تحصيل آخرتك. ثم إن فضل من زمانك شئٍ اصرفه في دنياك وفي طلب معاشك، ولا تجعل دنياك رأس مالك وآخرتك ربحه. ثم إن فضل من الزمان فضلة صرفتها في آخرتك تقتضى فيها الصلوات تسببها سبيكة واحدة ساقطة الأركان، مختلفة الواجبات من غير ركوع وسجود وطمأنينة بين الأركان، أو يلحقك التعب والإعياء فتنام عن القضاء جملة، جيفة في الليل بطلاً في النهار تابعاً لنفسك وهواك وشيطانك، وبائعاً آخرتك بدنياك عند النفس ومطيتها، أمرت بركوبها وتهذيبها ورياضتها والسلوك بها في سبيل السلامة وهي طرق الآخرة وطاعة مولاهما عزَّ وجلَّ فظلمتها بقولك منها وسلمت زمامها إليها وتبعتها في شهواتها ولذاتها وموافقها وشيطانها وهواها ففاتك خير الدنيا والآخرة وخسرتها فدخلت القيامة أفلس الناس وأخسرهم ديناً ودنياً، وما وصلت بمتابعتها إلى أكثر من قسمك من دنياك، ولو سلكت بها طريق الآخرة وجعلتها رأس مالك ربحت الدنيا والآخرة ووصل إليك قسمك من الدنيا هنيئاً مرئياً وأنت مصون مكرم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله يعطى الدنيا على نية الآخرة ولا يعطى الآخرة على نية الدنيا) وكيف لا يكون كذلك ونية الآخرة هي طاعة الله لأن النية روح العبادات وذاتها.

وإذا أطعت الله بزهدك في الدنيا أو طلبك دار الآخرة كنت من خواص الله عزَّ وجلَّ وأهل طاعته ومحبته، وحصلت لك الآخرة وهي الجنة وجوار الله عزَّ وجلَّ وخدمتك الدنيا فيأتيك قسمك الذي قدر لك منها، إذ الكل تبع لخالقها ومولاهما وهو الله عزَّ وجلَّ، وإن اشتغلت بالدنيا وأعرضت عن الآخرة غضب الرب عليك ففاتتك الآخرة وتعاصت الدنيا عليك وتعسرت وأتعبتك في إيصال قسمك إليك لغضب الله عزَّ وجلَّ عليك لأنها مملوكته، تهين من عصاه

وتكرم من أطاعه فيتحقق حينئذ قوله صلى الله عليه وسلم : (الدنيا والآخرة ضرتان، إن أرضيت إحداهما أسخطت عليك الأخرى). قال تعالى : { مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ } . آل عمران 152. يعنى به أبناء الآخرة، فانظر من أبناء أيهما أنت؟؟ ومن أي القبيلتين تحب أن تكون وأنت في الدنيا؟؟ ثم إذا صرت إلى الآخرة فالخلق فريقان فريق في طلب الدنيا وفريق في طلب الآخرة، وهم أيضاً يوم القيامة فريقان { فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ } . الشورى 7. فريق في الموقف قيام في طول الحساب { فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ } . المعارج 4. مما تعدون كما قال تعالى، وفريق في ظل العرش كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : (إنكم تكونون يوم القيامة في ظل العرش عاكفون على الموائد، عليها أطيب الطعام والفواكه والشهد أبيض من الثلج). كما جاء في الحديث : (وينظرون منازلهم في الجنة حتى إذا فرغ من حساب الخلق دخلوا الجنة، يهتدون إلى منازلهم كما يهتدي أحد الناس في الدنيا إلى منزله). فهل وصلوا إلى هذه إلا بتركهم الدنيا واشتغالهم بطلب الآخرة والمولى. وهل وقعوا أولئك في الحساب وأنواع الشدائد والذل إلا لاشتغالهم بالدنيا ورغبتهم فيها وزهدهم في الآخرة وقلة المبالاة بأمرها ونسيان يوم القيامة وما سيصيرون إليه غداً مما ذكر في الكتاب والسنة.

فانظر لنفسك نظر رحمة وشفقة، واختر لها خير القبيلتين وأفردها عن أقران السوء من شياطين الإنس والجن، وأجعل الكتاب والسنة أمامك وأنظر فيهما وأعمل بهما، ولا تغتر بالقال والقليل والهوس. قال الله تعالى : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ } . الحشر 7. ولا تخالفوه فتركوا العمل بما جاء به وتخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل { وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ } . الحديد 27 ، ثم إنه زكى هو عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ونزعه عن الباطل والزور فقال عز وجل : { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى } . النجم 3-4. أي ما آتاكم به فهو من عندي لا من هواه ونفسه فاتبعوه، ثم قال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } . آل عمران 31. فبين أن طريق المحبة إتباعه قولاً وفعلاً، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال : (الاكتساب سنتي، والتوكل حالتي) أو كما قال، فأنت بين سنته وحالته وإن ضعف إيمانك فالتكسب الذي هو سنته وإن قوى إيمانك فحالته التي هي التوكل قال الله تعالى : { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } . المائدة 23. وقال تعالى : { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } . الطلاق 3. وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ } . آل عمران 159. فقد أمرك بالتوكل ونبهك عليه كما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله : { وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ } . النساء 81. الأنفال 61. الأحزاب 3+48. فاتبع أوامر الله عز وجل في سؤاله في أعمالك فهي مردودة عليك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) هذا يعلم طلب الرزق والأعمال والأقوال، ليس لنا نبي غيره فنتبعه ولا كتاب غير القرآن فنعمل به، فيضلك هواك والشيطان. قال الله تعالى : { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } . ص 26. فالسلامة مع الكتاب والسنة، والهلاك مع غيرهما، وبهما يترقى العبد إلى حالة الولاية والبديلية والغوثية، والله أعلم.

المقالة السابعة والثلاثون في ذم الحسد و الأمر بتركه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : مالي أراك يا مؤمن حاسداً لجارك في مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وتقلبه في غناه ونعم مولاه عزَّ وجلَّ وقسمه الذي قسم له؟؟ أما تعلم أن هذا مما يضعف إيمانك ويسقطك من عين مولاك عزَّ وجلَّ ويغضبك إليه؟؟ أما سمعت الحديث المروى على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (قال الله تعالى في بعض ما تكلم به: الحسد عدو نعمتي) وما سمعت قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) ثم على أي شئ تحسده يا مسكين؟؟ أعلى قسمه أم على قسمك؟؟ فإن حسدته على قسمه الذي قسمه الله له في قوله تعالى : {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الزخرف32. فقد ظلمته، رجل يتقلب في نعمة مولاه التي تفضل بها عليه وقدرها له ولم يجعل لأحد فيها حظاً ولا نصيباً، فمن يكون أظلم وأبخل وأرعن وأنقص عقلاً منك؟؟ وإن حسدته على قسمك فقد جهلت غاية الجهل، فإن قسمك لا يعطى غيرك ولا ينتقل منك إليه، حاش لله. قال الله عزَّ وجلَّ : {مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} ق29. إن الله عزَّ وجلَّ لا يظلمك فيأخذ ما قسم وقدر لك فيعطى غيرك، فهذا جهل منك وظلم لأخيك، ثم حسدك للأرض التي هي معدن الكنوز والذخائر من أنواع الذهب والفضة والجواهر مما جمعه الملوك المتقدمة من عاد وثمود وكسرى وقيصر أولى من حسدك لجارك المؤمن أو الفاجر، فإن ما في بيته لا يكون جزءاً من أجزاء ألف ألف جزء مما هناك، فما حسدك لجارك إلا كمثل رجل رأى ملكاً مع سلطانه وجنوده وحشمه وملكه وعلى أراضى واجباته خراجها وارتفاعها لديه وتنعمه بأنواع النعم واللذات والشهوات فلم يحسده على ذلك ثم رأى كلباً برياً يخدم كلباً من كلاب ذلك الملك يقوم ويقعد ويصيح فيعطى من مطبخ الملك بقايا الطعام ورداءته فيتقوت به فأخذ يحسده ويعاديه ويتمنى موته وهلاكه وكونه مكانه وأن يخلفه في ذلك خسة ودناءة لا زهداً ودينياً وقناعة، فهل يكون في الزمان رجل أحمق منه وأرعن وأجهل؟

ثم لو علمت يا مسكين ما سيلقى جارك غداً من طول الحساب يوم القيامة إن لم يكن أطاع الله فيما حوله وأدى حقه فيها، وامتنال أمره وانتهاء نهيها فيها، واستعان بها على عبادته وطاعته ما يتمنى انه لم يعط من ذلك ذرة ولا رأى نعيماً يوماً قط، أما سمعت ما قد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ليتمنين أقوام يوم القيامة أن تفرض لحومهم بالمقاريض مما يرون لأصحاب البلاء من الثواب) فيتمنى جارك غداً مكانك في الدنيا لما يرى من طول حسابه ومناقشته وقيامه خمسين ألف سنة في حر الشمس في القيامة، لأجل ما يمتنع به من النعيم في الدنيا وأنت في معزل عن ذلك في ظل العرش أكلاً شارباً منتعماً فرحاً مسروراً مستريحاً، لصبرك على شدائد الدنيا وضيقها وآفاتها وبؤسها وفقرها، ورضاك وموافقتك لربك عزَّ وجلَّ فيما دبر وقضى من فقرك وغناء غيرك، وسقمك وعافية غيرك، وشدتك ورخاء غيرك، وذلك وعز غيرك، جعلنا الله وإياك ممن صبر عند البلاء، وشكر على النعماء، وفوض الأمور إلى رب السماء.

المقالة الثامنة والثلاثون في الصدق والنصيحة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : من عامل مولاه بالصدق والنصاح، استوحش مما
سواه في المساء والصبح.

يا قوم لا تدعوا ما ليس لكم، ووحدوا، ولا تشركوا، والله إن سهام القدر تصيبكم خدشاً لا قتالاً،
من كان في الله تلفة فعلى الله خلفه.

المقالة التاسعة والثلاثون في تفسير الشقاق والوفاق والنفاق

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : الأخذ مع وجود الهوى من غير الأمر عناد وشقاق،
الأخذ مع عدم الهوى وفاق واتفاق وتركه رياء ونفاق.

المقالة الأربعون في متى يصح للسالك أن يكون في زمرة الروحانيين

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تطمع أن تدخل في زمرة الروحانيين حتى تعادى جملتك، وتباين جميع الجوارح والأعضاء، وتتفرد عن وجودك وحركاتك وسكناتك وسمعك وبصرك وكلامك وبطشك وسعيك وعملك وعقلك، وجميع ما كان منك قبل وجود الروح فيك وما أوجد فيك بعد نفخ الروح، لأن جميع ذلك حجابك عن ربك عز وجل، فإذا صرت روحاً منفردة، سر السر، غيب الغيب، مبايناً للأشياء في سرك، متخذاً للكل عدواً وحجاباً وظلمة كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}. الشعراء 77. قال ذلك للأصنام، فجعل أنت جملتك وأجزاءك أصناماً مع سائر الخلق، فلا تطع شيئاً من ذلك ولا تتبعه جملة، فحينئذ تؤمن على الأسرار والعلوم الدلنية وغرائبها، ويرد إليك التكوين وخرق العادات التي هي من قبيل القدرة التي تكون للمؤمنين في الجنة، فتكون في هذه الحالة كأنك أحييت بعد الموت في الآخرة، فتكون كليتك قدرة، تسمع بالله، وتنطق بالله، وتبصر بالله، وتبسط بالله وتسعى بالله، وتقل بالله، وتطمئن وتسكن بالله، فتعمى عن سواه وتصم عنه فلا ترى لغيره وجوداً مع حفظ الحدود والأوامر والنواهي، فإن أنخرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك مفتون متلاعب بك الشياطين، وأرجع إلى حكم الشرع ودع عنك رأى الهوى، لأن كل حقيقة لم تشهد لها الشريعة فهي زندقة، والله أعلم.

المقالة الحادية والأربعون مثل في الفناء و كفيته

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : نضرب لك مثلاً في الفناء فنقول: ألا ترى أن الملك يولى رجلاً من العوام ولاية على بلدة من البلاد، ويخلع عليه ويعقد له ألوية ورايات، ويعطيه الكؤوس والطبل والجند فيكون على برهة من الزمان، حتى إذا اطمأن واعتقد بقاءه وثباته، وعجب به ونسي حالته الأولى ونقصانه وذله وفقره وخموله، وداخلته النخوة والكبرياء جاءه العزل من الملك في أسر ما كان من أمره، ثم طالبه الملك بجرائم صنعها وتعدى أمره ونهيه فيها، فحبسه في أضيق الحبوس وأشدّها، وطال حبسه ودام ضره له وذله وفقره، وذابت نخوته وكبريائه، وانكسرت نفسه وخدمت نار هواه، وكل ذلك في عين الملك ثم تعطف الملك عليه فنظره بعين الرأفة والرحمة، فأمر بإخراجه من الحبس والإحسان إليه، والخلة عليه وردّ الولاية إليه ومثلها معها وجعلها له موهبة، فدامت له وبقيت مصفاة مكفاة مهناة وكذلك المؤمن إذا قرب الله إليه واجتباه فتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام، فيرى بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من مطالعة الغيوب من ملكوت السموات

والأرض وتقريب وكلام لذيذ لطيف ووعده جميل، ووفاء به، وإجابة دعاء وكلمات حكمة وتصديق وعد، فإنها ترمى إليه قلبه قذفاً من مكان بعيد فتظهر على لسانه، ومع ذلك يسبغ عليه نعمة ظاهرة على جسده وجوارحه، في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة، فيديم الله عز وجل ذلك لعبده المؤمن المجذوب برهة من الزمان، حتى اطمأن العبد إلى ذلك واغتر به واعتقد دوامه فتح عليه أبواب البلائيا وأنواع المحن في النفس والمال والأهل والولد والقلب فينقطع عنه جميع ما كان أنعم الله عليه من قبل، فيبقى متحيراً حسيراً منكسراً مقطوعاً به.

إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوؤه، وإن نظر إلى قلبه وباطنه رأى ما يحزنه، وإن سأل الله تعالى كشف ما به من الضر لم ير إجابته، وإن طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً وإن وعد بشئ لم يعثر على الوفاء به، وإن رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها، وإن رام الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وإن ظهرت له في ذلك رخصة فعمل بها تسارعت العقوبات نحوه وتسلطت أيدي الخلق على جسمه وأسنتهم على عرضه، وإن طلب الإقالة مما قد أدخل فيه من الحالة الأولى قبل الاجتباء لم يقل، وإن طلب الرضا أو الطيبة والتنعيم بما به من البلاء لم يعط فحينئذ يأخذ النفس في الذوبان والهوى في الزوال والإرادة والأمان في الرحيل والأكوان في التلاشي، فيدام له ذلك بل يزداد تشديداً وعصراً وتأكيداً، حتى إذا فني العبد من الأخلاق الإنسانية والصفات البشرية وبقي روحاً فقط يسمع نداء في باطنه {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} ص42. كما قيل لسيدنا أيوب عليه السلام، فيمطر الله عز وجل في قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومنته، ويحييه بروحه ويطيبه بمعرفته ودقائق علومه، ويفتح عليه أبواب رحمته ونعمته ودلاله، وأطلق إليه الأيدي بالبذل والعطاء والخدمة في سائر الأحوال والألسن بالحمد والتناء، والذكر الطيب في جميع المحال، والأرجل بالترحال، وذلك له وسخر له الملوك والأرباب، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة، تربيته ظاهرة بخلقه ونعمه، ويستأثره تربيته باطنة بلطفه وكرمه، وأدام له ذلك إلى اللقاء، ثم يدخله فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، كما قال جلّ وعلا : {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} السجدة 17.

المقالة الثانية والأربعون في بيان حالتي النفس

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : النفس لها حالتان لا ثالث لهما: حالة عافية، وحالة بلاء، فإذا كانت في بلاء فالجزع والشكوى والسخط والاعتراض والتهمة للحق جل وعلا لا صبر ولا رضى ولا موافقة، بل سوء الأدب والشرك بالحق والأسباب والكفر، وإذا كانت في عافية فالشهره والبطر وإتباع الشهوات واللذات، كلما نالت شهوة طلبت أخرى، واستحقرت ما عندها من النعم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومركوب، فتخرج لكل واحدة من هذه النعم عيوباً ونقصاً، وتطلب أعلى منها وأسنى مما لم يقسم لها، وتعرض عما قسم لها، فتوقع الإنسان في تعب طويل، ولا ترضى بما في يديها وما قسم لها، فيرتكب الغمرات ويخوض المهالك في تعب طويل لا غاية له ولا منتهى في الدنيا، ثم في العقبى، كما قيل: إن من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم. وإذا كانت في بلاء لا تتمنى سوى انكشافها وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة ولا تطلب شيئاً منها، فإذا عوفيت منها رجعت إلى رعونتها وشرها وبطرها وإعراضها عن طاعة ربها وانهماكها في معاصيه، وتنسى ما كانت فيه من أنواع البلاء والضرر وما حل بها من الويل، فتترد إلى أشد ما كانت عليه من أنواع البلاء والضرر، لما اجترحت وركبت من العظائم فطمأ لها وكفأ عن المعاصي في المستقبل، إذ لا تصلح لها العافية والنعمة بل حفظها في البلاء والبؤس، فلو أحسنت الأدب عند انكشاف البلية ولازمت الطاعة والشكر والرضى بالمقسوم لكان خيراً لها دنيا وأخرى، وكانت تجد زيادة في النعيم والعافية والرضى من الله عز وجل والطيبة والتوفيق، فمن أراد السلامة في الدنيا والأخرى فعليه بالصبر والرضا، وترك الشكوى إلى الخلق وإنزال حوائجه بربه عز وجل ولزوم طاعته وانتظار الفرج منه و الانقطاع إليه عز وجل، إذ هو خير من غيره ومن جميع خلقه، حرمانه عطاء، عقوبته نعماء، بلاؤه دواء، وعده نفذ، قوله فعل مشيئة حاله { إِنَّمَا } وقوله وأمره أمره { إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } يس 82. كل أفعاله حسنة وحكمة ومصالحة، غير أنه طوى على المصالح من عباده وتفرد به، فالأولى واللائق بحاله والرضى والتسليم، واشتغاله بالعبودية من أداء الأوامر وانتهاء النواهي والتسليم في القدر، وترك الاشتغال في الربوبية التي هي علة الأقدار ومحاربتها، والسكوت عن لم وكيف ومتى؟ والتهمة للحق عز وجل في جميع حركاته وسكناته، وتستنند هذه الجملة إلى حديث بن عباس رضي الله عنهما، وهو ما روى عن عطاء بن عباس رضي الله عنهما قال: بينما أنا رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال لي: يا غلام "أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده أمامك، فإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما هو كائن" فلو جهد العباد أن يضرروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه فإن استطعت أن تعامل الناس بالصدق واليقين فاعمل، وإن لم تستطع فإن الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. وأعلم أن النصره بالصبر والفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً، فينبغي لكل مؤمن أن يجعل هذا الحديث مرآة لقلبه وشعاره ودثاره وحديثه، فيعمل به في جميع حركاته وسكناته حتى يسلم في الدنيا والآخرة ويجد العزة فيهما، برحمة الله عز وجل.

المقالة الثالثة والأربعون في ذم السؤال من غير الله تعالى

قال قدّس الله سرّه : ما سأل الناس من سأل إلا لجهله بالله عزّ وجلّ وضعف إيمانه ومعرفته ويقينه وقلة صبره، وما تعفف من تعفف عن ذلك إلا لوفور علمه بالله عزّ وجلّ وقوة إيمانه ويقينه وتزايد معرفته بربه عزّ وجلّ في كل يوم ولحظة وحياته منه عزّ وجلّ



المقالة الرابعة والأربعون في سبب عدم استجابة دعاء العارف بالله تعالى

قال قدّس الله سرّه : إنما لم يستجب للعارف كلما يسأل ربه عز وجل ويوفى له بكل وعد لئلا يغلب عليه الرجاء فيهلك، لأن ما من حالة ومقام إلا ولذاك خوف ورجاء هما جناحي طائر لا يتم الإيمان إلا بهما وكذلك الحال والمقام، غير أن خوف كل حالة ورجاءها بما يليق بها، فالعارف مقرب وحالته ومقامه أن لا يريد شيئاً سوى مولاه عز وجل ولا يركن ولا يطمئن إلى غيره عز وجل، ولا يستأنس بغيره، فطلبه لإجابة سؤاله والوفاء بعهدده غير ما هو بصدده ولائق بحاله ففي ذلك أمران اثنان : أحدهما لئلا يغلب عليه الرجاء والغرة بمكر ربه عز وجل فيغفل عن القيام بالأدب فيهلك، والآخر شرکه بربه عز وجل يشئ سواه، إذ لا معصوم في العالم في الظاهر بعد الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فلا يجيبه ولا يوفى له كيلاً، يسأل عادة ويريده طبعاً لا امتثال للأمر، لما في ذلك من الشرك والشرك كبيرة في الأحوال كلها والأقدام جميعها والمقامات بأسرها.

وأما إذا كان السؤال بأمر فذلك مما يزيد قرباً كالصلاة والصيام وغيرهما من الفرائض والنوافل، لأنه يكون في ذلك ممتثالاً للأمر.

المقالة الخامسة والأربعون في النعمة والابتلاء

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إن الناس رجالان: منعم عليه، ومبتلى بما قضى ربه عز وجل ، فالمنعم لا يخلو من المعصية والتكدر فيما أنعم عليه، فهو في أنعم ما يكون من ذلك إذ جاء القدر بما يكدره عليه من أنواع البلايا من الأمراض والأوجاع والمصائب في النفس والمال والأهل والأولاد فيتعظ بذلك، فكأنه لم ينعم عليه قط وينسى ذلك النعيم وحلاوته وإن كان الغنى قائماً بالمال والجاه والعبيد والإماء والأمن من الأعداء فهو في حال النعماء كأن لا بلاء في الوجود، كل ذلك لجهله بمولاه عز وجل { فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ } .هود107. البروج16. يبذل، ويحلى ويمر، ويغنى ويفقر، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل ويحيى ويميت، ويقدم ويؤخر. لما اطمأن إلى ما به من النعيم، ولما اغتر به، ولما أيس من الفرج في حالة البلاء، وبجهله أيضاً بالدنيا اطمأن إليها وطلب بها صفاء لا يشوبه كدر، ونسى إنها دار بلاء وتغيص، وتكاليف وتكدير وأن أصلها بلاء وطارفها نعماء فهي كشجرة الصبر أول ثمرتها مر وآخرها شهد حلو، لا يصل المرء إلى حلاوتها حتى يتجرع مرارتها، فلن يبلغ إلى الشهد إلا بالصبر على المر، فمن صبر على بلائها حلّى له نعيمها، إنما يعطى الأجير أجره بعد عروق جبينه وتعب جسده وكرب روحه وضيق صدره وذهاب قوته وإذلال نفسه وكسر هواه في خدمة مخلوق مثله، فلما تجرع هذه المرائر كلها أعقبت له طيب طعام وإدام وفاكهة ولباس وراحة وسرور ولو أقل قليل، فالدنيا أولها مرة كالصحفة العليا من عسل في ظرف مشوبة بمرارة، فلا يصل الأكل إلى قرار الظرف ويتناول الخالص منه إلا بعد تناول الصحفة العليا، فإذا صبر العبد على أداء أوامر الرب عز وجل وانتهى نواهيه والتسليم والتفويض فيما يجرى به القدر، وتجرع مرائر ذلك كله وتحمل أثقاله، وخالف هواه وترك مراده. أعقبه الله عز وجل بذلك طيب العيش في آخر عمره والدلال والراحة والعزة، ويتولاه ويغذيه كما يغذى الطفل الرضيع من غير تكلف منه وتحمل مؤنة وتبعة في الدنيا والأخرى كما يتلذذ أكل المر من الصحفة العليا من العسل يأكله من قرار الظرف، فينبغي للعبد المنعم عليه أن لا يأمن مكر الله عز وجل فيغتر بالنعمة ويقطع بدوامها، ويغفل عن شكرها ويرخي قيدها بتركه لشكرها. قال النبي صلى الله عليه وسلم : (النعمة وحشية فقيدوها بالشكر) فشكر نعمة المال الاعتراف بها للمنعم المتفضل وهو الله عز وجل والتحدث بها لنفسه في سائر الأحوال ورؤية فضله ومنته عز وجل وأن لا يملك عليه ولا يتجاوز حده فيه، ولا يترك أمره فيه، ثم بأداء حقوقه من الزكاة والكفارة والنذر والصدقة، وإغاثة الملهوف، وافتقاد أرباب الحاجات وأهلها في الشدائد عند تقلب الأحوال وتبديل الحسنات بالسيئات، أعنى ساعات النعيم والرخاء بالبأساء والضراء. وشكر نعمة العافية في الجوارح والأعضاء في الاستعانة بها على الطاعات والكف عن المحارم والسيئات والمعاصي والآثام فذلك قيد النعم عن الرحلة والذهاب، وسقى شجرتها وتنمية أغصانها وأوراقها، وتحسين ثمرتها، وحلاوة طعمها وسلامة عاقبتها، ولذة مضغها، وسهولة بلها، وتعقب عاقبتها وربيعها في الجسد، ثم ظهور بركتها على الجوارح من أنواع الطاعات والقربات والأذكار، ثم دخول العبد بعد ذلك في الآخرة في رحمة الله عز وجل. والخلود في الجنان مع – النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً – فإن لم يفعل ذلك واغتر بما ظهر من زينة الدنيا وبما ذاق من لذتها، واطمأن إلى بريق سرابها وما لاح من بريقها وما هب من نسيم أول نهار قيظها، ونعمومة جلود

حياتها و عقاربها، وغفل وعمى عن سمومها القاتلة المودعة في أعماقها، ومكافئها ومصايدها المنصوبة لأخذة وحبسه وهلاكه، فليهنأ للردى وليستبش بالعطف والفقر العاجل، مع الذل والهوان في الدنيا والعذاب الآجل في النار ولظى.

وأما المبتلى. فتارة يبتلى عقوبة ومقابلة لجريمة ارتكبها ومعصية اقترفها وأخرى يبتلى تكفيراً وتحميصاً، وأخرى يبتلى لارتفاع الدرجات وتبليغ المنازل العاليات ليحقق بأولى العالم من أهل الحالات والمقامات، مما سبقت لهم عناية من رب الخليقة والبريات، وسيرهم مولا هم ميادين البليات على مطايا الرفق والألطف، وروحهم بنسيم النظرات واللحظات في الحركات والسكنات، إذ لم يكن ابتلاهم للإهلاك والإهواء في الدركات، ولكن أخبرهم بها للاصطفاء والاجتباء واستخراج بها منهم حقيقة الإيمان وصفافها وميزها من الشرك والدعاوى والنفاق، ونحلهم بها أنواع العلوم والأسرار والأنوار، فجعلهم من اخلص الخواص، انتمنهم على أسرارهم، وارتضاهم لمجالسته. قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الفقراء الصبر جلساء الرحمن يوم القيامة) دنيا وأخرى، في الدنيا بقلوبهم وفي الآخرة بأجسادهم، فكانت البلايا مطهرة لقلوبهم من دون الشرك، والتعلق بالخلق والأسباب والأمانى والإرادات، وذوابة لها وسباكة من الدعاوى والهوسات، وطلب الأعواض بالطاعات من الدرجات والمنازل العاليات في الآخرة في الفردوس والجنات.

فعلامه الابتلاء على وجه المقابلة والعقوبات، عدم الصبر عن وجودها والجزع والشكوى إلى الخليقة والبريات.

وعلامه الابتلاء تكفيراً وتحميصاً للخطيات وجود الصبر الجميل من غير شكوى وإظهار الجزع إلى الأصدقاء والجيران والتضجر بأداء الأوامر والطاعات.

وعلامه الابتلاء ارتفاع وجود الرضا والموافق، وطمأنينة النفس والسكون بفعل إله الأرض والسموات، والفناء فيها إلى حين الانكشاف بمرور الأيام والساعات.

المقالة السادسة والأربعون

في قوله عز وجل في الحديث القدسي
(من شغله ذكرى...) إلى آخره

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : في قوله النبي صلى الله عليه وسلم عن ربي عز وجل : (من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) وذلك أن المؤمن إذا أراد الله عز وجل اصطفاه واجتباؤه، سلك به الأحوال وامتحنه بأنواع المحن والبلايا فيفقره بعد الغنى ويضطره إلى مسألة الخلق في الرزق عند سد جهاته عليه، ثم يصونه عن مسألتهم ويضطره إلى الكسب ويسهله وييسره له فيأكل بالكسب الذي هو السنة، ثم يعسره عليه ويلهمه السؤال

للخلق، ويأمره به بأمر باطن يعلمه ويعرفه ويجعل عبادته فيه ومعصيته في تركه، ليزول بذلك هواه وتنكسي نفسه وهى حالة الرياضة فيكون سؤاله على وجه الإجماع لا على وجه الشرك بالجبار، ثم يصونه عن ذلك ويأمره بالفرض منهم أمراً جزماً لا يمكنه تركه كالسؤال من قبل ثم ينقله من ذلك ويقطعه عن الخلق ومعاملتهم، فيجعل رزقه في السؤال له عز وجل فيسأله جميع ما يحتاج إليه فيعطيه عز وجل ولا يقطعه إن سكت وأعرض عن السؤال، ثم ينقله من السؤال باللسان إلى السؤال القلب فيسأله بقلبه جميع ما يحتاج فيعطيه حتى أنه لو سأله جملة ظاهراً وباطناً، فيناديه بجميع ما يصلحه ويقوم به أوده من المأكول والمشروب والملبوس وجميع مصالح البشر من غير أن يكون هو فيها أو تخطر بباله. فيتولاه عز وجل وهو قوله عز وجل {إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} الأعراف 196. فيتحقق حينئذ قوله عز وجل (من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) وهى حالة الفناء التي هي غاية أحوال الأولياء والأبدال ثم قد يرد إلى التكوين فيكون جميع ما يحتاج إليه بإذن الله وهو قوله جل وعلا في بعض كتب "يا ابن آدم أنا الله الذي لا غلبه إلا أنا أقول للشئ كن فيكون، أطعني أجعلك تقول للشئ كن فيكون".

المقالة السابعة والأربعون في التقرب إلى الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : سألتني رجل شيخ في المنام فقال : أي شئ يقرب العبد إلى الله عز وجل؟؟ فقلت : لذلك ابتداء وانتهاء فابتدأه الورع وانتهاه الرضى والتسليم والتوكل.

المقالة الثامنة والأربعون في ما ينبغي للمؤمن أن يشتغل به

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ينبغي للمؤمن أن يشتغل أولاً بالفرائض، فإذا فرغ منها اشتغل بالسنن، ثم يشتغل بالنوافل والفضائل، فما لم يفرغ من الفرائض فالاشتغال بالسنن حمق ورعونة، فإن اشتغل بالسنن والنوافل قبل الفرائض لم يقبل منه وأهين، فمثله مثل رجل يدعوه الملك إلى خدمته فلا يأتي إليه ويقف في خدمة الأمير الذي هو غلام الملك وخادمه وتحت يده وولايته.

عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن مثل مصلى النوافل قبل الفرائض مثل حبلى حملت فلما دنا نفاسها أسقطت فلا هي ذات حمل ولا هي ذات ولادة) كذلك المصلى لا يقبل الله له نافلة حتى يؤدي الفريضة. ومثل المصلى كممثل التاجر لا يخلص له ربحه حتى يأخذ رأس ماله، وكذلك المصلى بالنوافل لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة، وكذلك من ترك السنة واشتغل بنافلة لم ترتب مع الفرائض ولم ينص عليها ويؤكد أمرها فمن الفرائض ترك الحرام والشرك بالله عز وجل في خلقه، والاعتراض عليه في قدره وقضائه وإجابة الخلق وطاعتهم، والإعراض عن أمر الله عز وجل وطاعته، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا طاعة لمخلوق في معصية خالق).

المقالة التاسعة والأربعون في نم النوم

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : من اختار النوم على الذي هو سبب اليقظة فقد اختار الأنقص والأدنى واللحوق بالموت والغفلة عن جميع المصالح، لأن النوم أخو الموت ولهذا لا يجوز النوم على الله لما انتفى عز وجل عن النقائص أجمع، وكذلك الملائكة لما قربوا منه عز وجل نفى النوم عنهم، وكذلك أهل الجنة لما كانوا في أرفع المواضع وأطهرها وأنفسها وأكرمها نفى النوم عنهم لكونه نقصاً في حالتهم، فالخير كل الخير في اليقظة، والشر كل الشر في النوم والغفلة، فمن أكل بهواه أكل كثيراً فشرب كثيراً فنام كثيراً فندم كثيراً طويلاً وفاته خير كثير، ومن أكل قليلاً من الحرام كان كمن أكل كثيراً من المباح بهواه، لأن الحرام يغطي الإيمان فلا صلاة ولا عبادة ولا إخلاص، ومن أكل من الحلال كثيراً بالأمر كان كمن أكل منه قليلاً في النشاط في العبادة والقوة، فالحلال نور في نور، والحرام ظلمة في ظلمة، لا خير فيه . أكل الحلال بهواه بغير الأمر، وأكل الحرام مستجلبان للنوم، فلا خير فيه.

المقالة الخمسون في علاج دفع البعد عن الله تعالى و بيان كيفية التقرب منه تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا يخلو أمرك من قسمين:

إما أن تكون غائباً عن القرب من الله أو قريباً منه واصلاً إليه، فإن كنت غائباً عنه فما قعودك وتوانيك عن الحظ الأوفر والنعيم والعز الدائم والكفاية الكبرى والسلامة والغنى والدلال في الدنيا والأخرى؟ فقم وأسرع في الطيران إليه عز وجل بجناحين: أحدهما: ترك اللذات والشهوات الحرام منها والمباح والراحات أجمع.

والآخر احتمال الأذى والمكروه وركوب العزيمة والأشد، والخروج من الخلق والهوى والإرادات والمنى دنيا وأخرى حتى تظفر بالوصول والقرب، فتجد عند ذلك جميع ما تتمنى، وتحصل لك الكرامة العظمى والعزة الكبرى فإن كنت من المقربين الواصلين إليه عز وجل ممن أدركتهم العناية وشملتهم الرعاية وجذبتهم المحبة ونالتهم الرحمة والرفقة، فأحسن الأدب ولا تغتر بما أنت فيه، فتقصر في الخدمة، ولا تخلد إلى الرعوناة الأصلية من الظلم والجهل والعجل في قوله تعالى : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } .الأحزاب72. وقوله تعالى : { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } .الإسراء11. وأحفظ قلبك من الالتفات إلى ما تركته من الخلق والهوى والإرادة والتخير وترك الصبر والموافقة والرضا عند نزول البلاء، واستطرح بين يدي الله عز وجل كالكرة بين يدي الفارس يقلبها بصولجانه، والميت بين يدي الغاسل، والطفل الرضيع في حجر أمه وظئره، تعامى عن سواه عز وجل فلا ترى لغيره وجوداً ولا ضراً ولا نفعاً ولا عطاء ولا منعاً، أجعل الخليفة والأسباب عند الأذية والبلية كسوطه عز وجل يضربك به، وعند النعمة والعطية كيده يلقمك بها.

المقالة الحادية والخمسون في الزهد

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : الزاهد يثاب بسبب الأقسام مرتين يثاب في تركها أولاً، فلا يأخذها بهواه و موافقة النفس، بل يأخذها بمجرد الأمر، فإذا تحققت عداوته لنفسه و مخالفته لهواه عُذ من المحقين و أهل الولاية و أدخل في زمرة الأبدال و العارفين أمر حنيند بتناولها و التلبس بها، إذ هي قسمة لا بد له منها لم تخلق لغيره، جف بها القلم و سيق بها العلم، فإذا امتثل الأمر فتناول أو أطلع بالعلم فتلبس بها بجريان القدر و الفعل فيه من غيري أن يكون

هو فيه، لا هوى و لا إرادة و لا همة أثيب بذلك ثانياً، هو ممتثل للأمر بذلك أو موافق لفعل الحق عز و جل فيه.

فإن قال قائل : كيف أطلقت القول بالثواب لمن هو في المقام الأخير الذي ذكرته من أنه أدخل في زمرة الإبدال و العارفين المفعول فيهم، الفانين عن الخلق و الأنفس و الأهوية و الإرادات و الحظوظ و الأمانى و الأعواض على العمال الذين يرون جميع طاعاتهم و عباداتهم فضلاً من الله عز و جل و نعمة و رحمة و توفيقاً و تيسيراً منه عز و جل و يعتقدون أنهم عبيد الله عز و جل ، و العبد لا يستحق على مولاه حقاً، إذ هو برمته مع حركاته و سكناته و أكسابه ملك لمولاه، فكيف يقال في حقه يثاب و هو لا يطلب ثواباً و لا عوضاً على فعله و لا يرى له عملاً، بل يرى نفسه من البطالين و أفلس المفلسين من الأعمال.

فتقول : صدقت، غير أن الله عز و جل يواصله بفضلته و يدلله بنعمته و يربيه بلطفه و رأفته و بره و رحمته و كرمه، إذ كف يده عن مصالح نفسه و طلب الحظوظ لها و جلب النفع إليها و دفع الضر عنها، فهو كالطفل الرضيع الذي لا حراك له في مصالح نفسه و هو مدلل بفضل الله عز و جل و رزقه الدار على يدي والديه الوكيلين الكفيلين، فلما سلب عنه مصالح نفسه عطف قلوب الخلق عليه و أوجد رحمة و شفقة له في القلوب حتى كل واحد يرحمه و يتعطف عليه و يبهره، فهكذا الكل فإن عن سوى الله الذي لا يحركه غيره أمره أو فعله مواصل بفضل الله عز و جل دنيا و أخرى مدلل فيهما مدفوع عنه الأذى متولي، قال تعالى : { إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ } الأعراف 196.

المقالة الثانية والخمسون
في سبب ابتلاء طائفة من المؤمنين

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إنما يبتلى الله طائفة من المؤمنين الأحباب من أهل الولاية ليردهم بالبلاء إلى السؤال فيحب سؤالهم، فإذا سألوا يحب إجابتهم فيعطى الكرم والجود حقهما لأنهما يطالبان لأنه عز و جل عند سؤال المؤمنين من الإجابة، وقد تحصل الإجابة و لا يحصل النقد والنقاد لتعويق القدر لا على وجه عدم الإجابة والحرمان، فليبدأ العبد عند نزول البلاء، وليفتش عن ذنوبه في ترك الأوامر و ارتكاب المناهي ما ظهر منا وما بطن. والمنازعة في القدر إذا تعاقب عليه، إنما يبتلى بذلك مقابلة، فان انكشف البلاء، وإلا، فليتخذ إلى الدعاء والتضرع والاعتذار فيديم بالسؤال لجواز أن يكون ابتلاءه ليسأله، ولا يتهمه لتأخير الإجابة لما بيناه، والله أعلم.

المقالة الثالثة والخمسون في الأمر بطلب الرضا من الله و الفناء به تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أطلبوا من الله عزَّ و جلَّ الرضا أو الفناء، لأنه هو الراحة الكبرى والجنة العالية المنفرة في الدنيا، وهو باب الله الأكبر وعلّة محبة الله لعبده المؤمن، فمن أحبه الله لم يعذبه في الدنيا والآخرة فيه اللقوق بالله عزَّ و جلَّ والوصول إليه، ولا تشتغلوا بطلب الحظوظ وأقسام لم تقسم أو قسمت، فإن كانت لم تقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهالة، وهو أشد العقوبات، كما قيل: من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم وإن كانت مقسومة فالاشتغال بها شره وحرص وشرك من باب العبودية والمحبة والحقيقية، لأن الاشتغال بغير الله عزَّ و جلَّ شرك، وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته فمن احتال مع الله غيره فهو كذاب وطالب العوض على عمله غير مخلص، وإنما المخلص من عبد الله ليعطى الربوبية حقها للمالكية والحقيقة، لأن الحق عزَّ و جلَّ يملكه ويستحق عليه العمل والطاعة له بحركاته وسكناته وسائر أكسابه، والعبد وما في يده ملك لمولاه كيف وقد بينا في غير موضع أن العبادات بأسرها نعمة من الله وفضل منه على عبده إذ وفقه لها وأقدره عليها، فالاشتغال بالشكر لربه خير وأولى من طلبه من الأعواض أو الجزاء عليها، ثم كيف تشتغل بطلب الحظوظ، وقد ترى خلقاً كثيراً كلما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعت اللذات والنعم والأقسام إليهم زاد سخطهم على ربهم وتضجرهم وكفرهم بالنعمة وكثرة همومهم وغمومهم و فقرهم إلى أقسام لم تقسم غير ما عندهم وحقرت وصغرت وقبحت أقسامهم عندهم وعظمت وكبرت وحسنت أقسام غيرهم وأنحلت قواهم، وكبرت سنهم وشنت أحوالهم وتعبت أجسادهم وعرقت جباههم وسودت صحائفهم بكثرة أثمهم وارتكاب عظام الذنوب في طلبها وترك أوامر ربهم فلم ينالوها وخرجوا من الدنيا مفاليس لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، لا شكروا ربهم فيما قسم لهم من أقسامهم فاستعانوا بها على طاعته. وما نالوا ما طلبوا من أقسام غيرهم، بل ضيعوا دنياهم وأخرتهم، فهم أشر الخليقة وأجهلهم وأحمقهم وأخسهم عقولاً وبصيرة، فلو أنهم رضوا بالقضاء وقنعوا بالعطاء وأحسنوا طاعة المولى لأتتهم أقسامهم من الدنيا من غير تعب ولا عناء، ثم نقلوا إلى جوار العلي الأعلى فوجدوا عنده كل مراد ومنى، جعلنا الله وإياكم ممن رضي بالقضاء، وجعل سؤاله ذلك والفناء وحفظ الحال والتوفيق بما يحبه ويرضى.

المقالة الرابعة والخمسون في من أراد الوصول إلى الله تعالى و بيان كيفية الوصول إليه تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا، و من أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة، فيترك دنياه لآخرته و آخرته لربه، فما دام في قلبه شهوة من شهوات الدنيا و لذة من لذاتها و طلب راحة من راحتها من سائر الأشياء من مأكول و مشروب و ملبوس و منكوح و مسكون و مركوب، و ولاية، و رياسة و طبقة في علم من فنون العلم من

الفقه فوق العبادات الخمس، ورواية الحديث و قراءة القرآن بروايته، و النحو و اللغة و الفصاحة و البلاغة، و زوال الفقر و وجود الغنى و ذهاب البلية و مجيء العافية، و في الجملة انكشاف الضر و نجى النفع فليس بزاهد حقاً لأن كل واحد من هذه الأشياء فيه لذة النفس و موافقة الهوى و راحة الطبع و حب له، و كل ذلك من الدنيا و مما يحب البقاء فيها و يحصل السكون و الطمأنينة إليها، فينبغي أن يجاهد في إخراج جميع ذلك عن القلب، و يأخذ نفسه بإزالة ذلك و قلعه و الرضا بالعدم و الإفلاس و الفقر الدائم، فلا يبقى من ذلك مقدار مص نواة ليخلص زهده في الدنيا، فإذا تم له ذلك زالت الغموم و الأحزان من القلب و الكرب عن الحشا، و جاءت الراحة و الطيب و الأنس بالله كما قال عز و جل: (الزهد في الدنيا يريح القلب و الجسد) فما دام في قلبه شئ من ذلك فالحموم و الخوف و الوجل قائم في القلب و الخذلان لازم له، و الحجاب عن الله عز و جل و عن قربه متكاثف متراكم فلا ينكشف جميع ذلك إلا بزوال حب الدنيا على الكمال و قطع العلائق بآثرها، ثم يزهد في الآخرة، فلا يطلب الدرجات و المنازل العاليات و الحور و الولدان و الدور و القصور و البساتين و المراكب و الخيل و الحلي و المآكل و المشارب و غير ذلك مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين، فلا يطلب على عمله جزاء أو أجراً من الله عز و جل البتة دنيا و لا أخرى، فحينئذ يجد الله عز و جل فيؤتيه حسابه تفضلاً منه و رحمة، فيقربه منه و يدينه و يلطف به و يتعرف إليه بأنواع ألطافه و بره كما هو دأبه عز و جل مع رسله و أنبيائه و أوليائه و خواصه و أحبابه أولى العلم به عز و جل فيكون العبد كل يوم في مزيد أمره مدة حياته. ثم ينتقل إلى دار الآخرة إلى ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر، مما تضيق عنه الأفهام و تعجز عن وصفه العبارات، و الله أعلم

المقالة الخامسة والخمسون
في ترك الحظوظ

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ترك الحظوظ ثلاث مرات: الأولى يكون العبد ماراً في عشواه متخبطاً فيه متصرفاً بطبعه في جميع أحواله من غير تعبد لربه و لازم في الشرع يردده و لا جده من جدود ينتهي إليه عن حكمه، فبينما هو على ذلك ينظر الله إليه يعني يرحمه، فيبعث الله إليه واعظاً من خلقه من عباده الصالحين فينبهه، و يثنيه بواعظ من نفسه، فيتضافر الواعظان على نفسه و طبعه، فتعمل الموعظة عملها، فتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطية الطبع و المخافة فتتميل إلى الشرع في جميع تصرفاتها فيصير العبد مسلماً قائماً مع الشرع فانياً عن الطبع، فيتترك حرام الدنيا و شبهاتها و من الخلق، فيأخذ مباح الحق عز و جل و حلال الشرع في مأكله و مشربه و ملبسه و منكحه و جميع ما لا بد منه، لتحتفظ البنية و يتقوى على طاعة الرب عز و جل، و ليستوفى قسمه المقسوم له الذي لا يتجاوزه و لا سبيل إلى الخروج من الدنيا قبل تناوله و التلبس به و استيفائه فيسير على مطية المباح و الحلال في الشرع في جميع أحواله تنتهي به هذه المطية إلى عتبة الولاية و الدخول في زمرة المحققين و الخواص أهل العزيمة مريدي الحق، فيأكل بالأمر، فحينئذ يسمع نداء من قبل الحق عز و جل من باطنه: أترك نفسك و تعال، أترك الحظوظ و الخلق إن أردت الخالق، و أخلع نعليك، و دنياك و آخرتك، و تجرد عن الأكوان و الموجودات و ما سيوجد و الأمانى بأسرها، و تعر عن الجميع وافن عن الكل و تطيب بالتوحيد و أترك الشرك و صدق الإرادة. ثم وطء البساط بالأدب مطرقاً، لا تنظر يميناً إلى الآخرة و لا شمالاً إلى الدنيا و لا إلى الخلق و لا إلى الحظوظ، فإذا دخل في هذا المقام، و تحقق الوصول جاءت الخلعة من قبل الحق عز و جل، و غشيتها أنواع

المعارف و العلوم و أنواع الفضل، فيقال له: تلبس بالنعم و الفضل و لا تسئ الأذب بالرد و ترك التلبس، لأن رد نعم الملك افتئاتا على الملك و استخفافاً بحضرتة و حينئذ يتلبس بالفضل و القسمة بالله من غير أن يكون هو فيه و من قبل كأن يتلبس بهواه و نفسه فله أربع حالات في تناول الحظوظ و الأقسام:

الأولى بالطبع هو الحرام. و الثانية بالشرع و هو المباح و الحلال. و الثالثة بالأمر و هي حالة الولاية و ترك الهوى. و الرابعة بالفضل و هي حالة زوال الإرادة و حصول البدلية و كونه مراداً قائماً مع القدر الذي هو فعل الحق و هي حالة العلم و الاتصاف بالصلاح، فلا يسمى صالحاً على الحقيقة إلا وصل إلى هذا المقام، و هو قوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}. الأعراف 196. فهو العبد الذي كفت يده عن جلب مصالحه و منافعه و عن رد مضاره و مفسده، كالرضيع مع الظئر، و الميت الغسيل مع الغاسل، فنتولى يد القدر تربيته من غير أن يكون له اختيار و تدبير، فان عن جميع ذلك لا حالاً و لا مقاماً و لا إرادة، بل القيام مع القدرة، تارة بسيط و تارة يغنى و تارة يفقر، و يختار و لا يتمنى زوال ذلك و تغييره، بل الرضى الدائم و الموافقة الأبدية، فهو آخر ما تنتهي أحوال الأولياء قدست أسرارهم.

المقالة السادسة والخمسون في فناء العبد عن الخلق و الهوى و النفس و الإرادة و الأمانى

قال رضى الله تعالى عنه و أرضاه: إذا فني العبد عن الخلق و الهوى و النفس و الإرادة و الأمانى دنيا و أخرى و لم يرد إلا الله عز و جل و خرج الكل عن قلبه وصل إلى الحق، و اصطفاه و اجتباها، و أحبه و حببه إلى خلقه، و جعله يحبه و يحب قربه، و يتنعم بفضله و يتقلب في نعمه و فتح عليه أبواب رحمته، و وعده أن لا يغلقها عنه أبداً، فيختار العبد حينئذ الله، و يدبر بتدبيره و يشاء بمشيئته، و يرضى برضاه يمتثل أمره دون غيره، و لا يرى لغيره عز و جل وجوداً و لا فعلاً، فحينئذ يجوز أن يعده الله بوعده ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك، و لا يغير ما قد توهمه من ذلك، لأن الغيرية قد زالت بزوال الهوى و الإرادة فصار في فعل الله عز و جل و إرادته فيصير الوعد حينئذ في حقه مع الله عز و جل كرجل عزم على فعل شئ في نفسه و نواه ثم صرفه إلى غيره كالناسخ و المنسوخ فيما أوحى الله عز و جل إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قوله عز و جل: {مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. البقرة 106. لما كان النبي صلى الله عليه وسلم منزوع الهوى و الإرادة سوى المواضع التي ذكرها الله عز و جل في القرآن من الأسر يوم بدر {ثُرَيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} * لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}. الأنفال 67-68. كذا قالوا، و غيره و هو مراد الحق عز و جل لم يترك على حالة واحدة بل نقله إلى القدر إليه فصرفه في القدر و قلبه منها، نبهه بقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. البقرة 106. يعنى أنك في بحر القدر تقلبك أمواجه تارة كذا و تارة كذا، فمنتهى أمر الولي ابتداء أمر النبي ما بعد الولاية و البدلية إلا النبوة، و الله أعلم.

المقالة السابعة والخمسون في عدم المنازعة في القدر و الأمر بحفظ الرضا به

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : الأحوال قبيض كلها، لأنه يؤمر الولي بحفظها وكل ما يؤمر بحفظه فهو قبض، والقيام مع القدر بسط كله، لأنه ليس هناك شئ يؤمر بحفظه سوى كونه موجوداً في القدر، فعليه أن لا ينازع في القدر بل يوافق ولا ينازع في جميع ما يجرى عليه مما يحلو ويمر. الأحوال معدودة فأمر بحفظ حدوده، والفضل الذي هو القدر غير محدود فيحفظ.

و علامة أن العبد دخل في مقام القدر والفعل والبسط أنه يؤمر بالسؤال في الحظوظ بعد أن أمر بتركها والزهد فيها، لأنه لما خلا باطنه من الحظوظ ولم يبق غير الرب عزّ و جلّ بوسط فأمر بالسؤال والنشهي وطلب الأشياء التي هي قسمه، ولا بد من تناولها والتوصل إليه بسؤاله، ليتحقق كرامته عند الله عزّ و جلّ ومنزلته، وامتنان الحق عزّ و جلّ عليه بإجابته إلى ذلك، والإطلاق بالسؤال في عطاء الحظوظ من أكثر علامات البسط بعد القبض، والإخراج من الأحوال والمقامات والتكليف في حفظ الحدود.

فإن قيل : هذا يدل على زوال التكلف والقول بالزندقة والخروج من الإسلام، ورد قوله عزّ و جلّ : {وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} .الحجر 99. قيل لا يدل على ذلك ولا يؤدي إليه بل الله أكرم و وليه أعز عليه من أن يدخله في مقام النقص والقبیح في شرعه ودينه، بل يعصمه من جميع ما ذكر ويصرفه عنه ويحفظه وينبئه ويسدده لحفظ الحدود، فتحصل العصمة وتحفظ الحدود من تكليف منه ومشقة، وهو عن ذلك في غيبة في القرب قال عزّ و جلّ : {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} .يوسف 24. وقال عزّ و جلّ : {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} .الحجر 42.الإسراء 65. وقال تعالى: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} .الصافات 40+74+128+160. يا مسكين هو محمول الرب وهو مراده، وهو يربيه في حجر قربه ولطفه، أنى يصل الشيطان عليه وتتطرق القبائح والمكاريه في الشرع نحوه؟ أبعدت النجعة وأعظمت الفرية وقلت قولاً فظيماً، تباً لهذه الهمم الخسيسة الدنية والعقول الناقصة البعيدة و الآراء الفاسدة المتخلخلة، أعادنا الله والإخوان من الضلالة المختلفة بقدرته الشاملة ورحمته الواسعة، وسترنا بأستاره التامة المانعة الحامية، وربانا بنعمه السابعة وفضائله الدائمة بمنه وكرمه تعالى شأنه.

المقالة الثامنة والخمسون في صرف النظر عن كل الجهات و طلب جهة فضل الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : تقام عن الجهات كلها ولا تبصص على شئ منها، فما دمت تنظر إلى واحدة منها لا يفتح لك جهة فضل الله عز وجل وقربه، فسد الجهات جميعا بتوحيده وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك، فحينئذ يفتح عين قلبك جهة فضل الله العظيم، فتراها بعيني رأسك إذا ذاك شعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك فيظهر عند ذلك النور من باطنك على ظاهر ككنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلة الظلماء، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشرق ظاهر البيت بنور باطنه، فتسكن النفس و الجوارح إلى وعد الله وعطائه عن عطاء غيره و وعد غيره عز وجل. و ارحم نفسك ولا تظلمها ولا تلقها في ظلمات جهلك ورعونتك، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلق والحوال والقوة والكسب والأسباب فتوكل إليها، فتسد عنك الجهات ولم تفتح لك جهة فضل الله عز وجل عقوبة ومقابلة لشركك بالنظر إلى غيره عز وجل، فإذا وجدته ونظرت إلى فضله ورجوته دون غيره وتعاميت عما سواه، قربك وأدناك، ورحمك ورباك وأطعمك وسقاك، وداواك وعفاك، وأعطاك وأغناك، فلا ترى بعد ذلك لا فقرك ولا غناك.

المقالة التاسعة والخمسون في الرضا على البلية و الشكر على النعمة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تخلو حالتك إما أن تكون بلية أونعمة. فإن كانت بلية فتطالب فيها بالصبر، وهو الأدنى، والصبر وهو أعلى منه. ثم الرضا والموافقة، ثم الفناء، وهو للإبدال، وإن كانت نعمة فتطالب فيها بالشكر عليها. والشكر باللسان والقلب والجوارح.

أما باللسان فالاعتراف بالنعمة أنها من الله عز وجل : وترك الإضافة إلى الخلق لا إلى نفسك وحوالك وقوتك وكسبك ولا إلى غيرك من الذين جرت على أديهم، لأنك وإياهم أسباب وآلات وأداة لها، وإن قاسمها ومجريها وموجدها والشاغل فيها والمسبب لها هو الله عز وجل والقاسم هو الله، والمجرى هو والموجد هو، فهو أحق بالشكر من غيره.

لا نظر إلى الغلام الحمال للهدية إنما النظر إلى الأستاذ المنفذ المنعم بها قال الله تعالى في حق من عدم هذا المنظر : {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} .الروم7. فمن نظر إلى الظاهر والسبب ولم يجاوز علمه ومعرفة فهو الجاهل الناقص قاصر العقل، إنما سمي العاقل عاقلاً لنظره في العواقب.

وأما الشكر بالقلب، فبالاعتقاد الدائم. والعقد الوثيق الشديد المتبرم. إن جميع ما بك من النعم والمنافع والذات في الظاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل لا من غيره، ويكون شكرك بلسانك معبراً عما في قلبك. وقد قال عز وجل : { وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ } . النحل 53. وقال تعالى : { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } . لقمان 20. وقال تعالى : { وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا } . النحل 18. فمع هذا لا يبقى لمؤمن منعم سوى الله تعالى.

وأما الشكر بالجوارح فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق، فلا تجيب أحداً من الخلق، فيما فيه إعراض عن الله تعالى، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأمانى وسائر الخليفة، كجعل طاعة الله أصلاً ومتبوعاً وإماماً وما سواها فرعاً وتابعاً ومأموماً، فإن فعلت غير ذلك كنت جائراً ظالماً حاكماً بغير حكم الله عز وجل الموضوع لعباده المؤمنين، وسالماً غير سبيل الصالحين. قال الله عز وجل : { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ } . المائدة 44. وفي آية أخرى : { وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } . المائدة 45. وفي أخرى : { هُمُ الْفَاسِقُونَ } . المائدة 47. فيكون انهواك إلى التي وقودها الناس والحجارة، وأنت لا تصبر على حمى ساعة في الدنيا وأقل بسطة وشرارة من النار فيها، فكيف صبرك على الخلود في الهاوية مع أهلها النجا النجا، الوحا الوحا، الله الله، أحفظ الحاليتين وشروطهما، فإنك لا تخلو في جميع عمرك من أحديهما إما البلية وإما النعمة فأعط كل حالة حظها وحققها من الصبر والشكر على ما بينت لك، فلا تشكون في حالة البلية إلى أحد من خلق الله، ولا تظهرن الضجر لأحد ولا تتهمن ربك في باطنك. ولا تشكن في حكمته واختر الأصلح لك في دنياك، وأخرتك، فلا تذهبن بهمتك إلى أحد من خلقه في معافاتك فذاك إشراك منك به عز وجل، لا يملك معه عز وجل في ملكه أحد شيئاً لا ضار ولا نافع ولا دافع، ولا جالب ولا مسقم، ولا مبلي، ولا معاف ولا مبرئ غيره عز وجل، فلا تشتغل بالخلق لا في الظاهر ولا في الباطن، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، بل ألزم الصبر والرضا والموافقة والفناء في فعله عز وجل، فإن حرمت ذلك كله فعليك بالاستغاثة إليه عز وجل، والتضرع من شؤم النفس، ونزاهة الحق عز وجل والاعتراف له بالتوحيد بالنعيم، والتبرئ من الشرك، وطلب الصبر والرضا والموافقة، إلى حين يبلغ الكتاب أجله، فتزول البلية وتتكشف الكربة، وتأتي النعمة والسعة والفرحة والسرور، كما كان في حق نبي الله أيوب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأشرف السلام، كما يذهب سواد الليل ويأتي بياض النهار، ويذهب برد الشتاء ويأتي نسيم الصيف وطيبه لأنه لكل شئ ضدّاً وخلافاً وغاية وبدءاً ومنتهى، فالصبر مفتاحه وابتدأه وانتهأه وجماله كما جاء في الخبر (الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد) وفي لفظ (الصبر الإيمان كله) وقد يكون الشكر هو التلبس بالنعمة وهي أقسامه المقسومة لك، فشكر التلبس بها في حال فنائك، وزوال الهوى والحمية والحفظ، وهذه حالة الأبدال وهي المنتهى، اعتبر ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى.

المقالة الستون في البداية و النهاية

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : البداية : هي الخروج من المعهود إلى المشروع ثم المقدر، ثم الرجوع للمعهود. ويشترط حفظ الحدود، فتخرج من معهودك من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والمسكون والطبع والعادة إلى أمر الشرع ونهيه، فتتبع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه و سلم كما قال الله تعالى : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا } .الحشر 7. وقال تعالى : { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } .آل عمران 31. فتفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك فلا يكون في باطنك غير توحيدك له وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته مما أمر ونهى، فيكون هذا دأبك وشعارك ودارك في حركتك وسكونك، في ليلك ونهارك، وسفرك وحضرتك، وشدتك ورخائك، وصحتك وسقمك، وأحوالك كلها، ثم تحمل إلى وادي القدر فيتصرف فيك القدر، فتفنى عن جدك واجتهادك وحولك وقوتك، فتساق إليك الأقسام التي جف بها القلم وسبق بها العلم، فتلبس بها وتعطى منها الحفظ والسلامة فتحفظ فيها الحدود ويحصل فيها الموافقة لفعل المولى، ولا تتخرق قاعدة الشرع على الزندقة وإباحة المحرم قال تعالى : { إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } .الحجر 9. وقال تعالى : { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } .يوسف 24. فتصحب الحفظ والحمية وإنما هي أقساماً معدة لك، فحبسها عنك في حال سيرك وطريقك وسلوكك فيافي الطبع ومفاوز الهوى المعهود، لأنها أثقال أحمال ما زبحت عنك، لئلا يثقلك فتضعفك إلى حين الوصول إلى عتبة الفناء، وهو الوصول إلى قرب الحق عز وجل والمعرفة به، والاختصاص بالأسرار والعلوم الدينية، والدخول في بحار الأنوار، حيث لا تضر ظلمة الطبائع والأنوار، فالطبع باق إلى أن تفارق الروح الجسد لاستيفاء الأقسام، إذ لو زال الطبع من الأدمي لالتحق بالملائكة وبطلت الحكمة، فبقى الطبع يستوفى الأقسام والحظوظ، فيكون ذلك وظائفاً لا أصلياً كما قال النبي صلى الله عليه و سلم: (حبيب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة) فلما فني النبي صلى الله عليه و سلم عن الدنيا وما فيها ردت إليه أقسامه المحبوسة عنه في حال سيره إلى ربه عز وجل ، فاستوفاهها موافقة لربه تعالى والرضا بفعله ممتثلاً لأمره، قدست أسمائه وعمت رحمته، شمل فضله لأولياته وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فهكذا الولي في هذا الباب ترد إليه أقسامه وحظوظه مع حفظ الحدود، فهو الرجوع من النهاية إلى البداية، والله أعلم.

المقالة الحادية والستون في التوقف عند كل شئ حتى يتبين له إباحة فعله

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : كل مؤمن مكلف بالتوقف و التفنّيش عند حضور الأقسام عن تناول و الأخذ، حتى يشهد له الحكم بالإجابة، و العلم بالقسمة، و المؤمن فتاش و المنافق لقاف. و قال صلى الله عليه و سلم (المؤمن وقاف) و قال صلى الله عليه و سلم : (دع ما يرييك إلى ما لا يرييك) فالمؤمن يقف عند كل قسم من مأكول و مشروب و ملبوس و منكوح و سائر الأشياء التي تفتح له فلا يأخذ حتى يحكم له بجواز الأخذ و التناول كحكمه إذا كان في حالة التقوى. أو حتى يحكم له بذلك الأمر إذا كان في حالة الولاية. أو حتى يحكم العلم في حالة البدلية و الغوثية، و الفعل الذي هو القدر المحض و هي حالة الفناء، ثم تأتيه حالة أخرى تتناول كل ما يأتيه و يفتح له ما لم يعترض عليه الحكم و الأمر و العلم، فإذا اعترض أحد هذه الأشياء امتنع من تناول، فهي ضد الأولى.

ففي الأولى الغالب عليه التوقف و التثبت. و في الثانية الغالب عليه التناول و الأخذ و التلبس بالفتوح. ثم تأتي الحالة الثالثة.

فالتناول المحض و التلبس بما يفتح من النعم من غير اعتراض أحد الأشياء الثلاثة و هي حقيقة الفناء، فيكون المؤمن فيها محفوظاً من الآفات و خرق حدود الشرع مصاناً مصروفاً عنه الأسواء، كما قال الله تعالى : { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } يوسف 24. فيصير العبد مع الحفظ عن خرق الحدود كالمقرض إليه المأنون له و المطلق له في الإباحات الميسر له الخير، ما يأتيه قسمه المصفي له من الآفات و التبعات في الدنيا و الآخرة، و الموافق لإرادة الحق و رضاه و فعله و لا حالة فوقها و هي الغاية، و هي السادة الأولياء الكبار الخالص أصحاب الأسرار، الذين أشرفوا على عتبة أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

المقالة الثانية والستون في المحبة و المحبوب و ما يجب في حقهما

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ما أكثر ما يقول المؤمن قرب فلان و بعدت، و أعطى فلان و حرمت، و أغنى فلان و أفقرت و وفى فلان و أسقمت، و عظم فلان و حقرت، و حمد فلان و ذممت، و صدق فلان و كذبت. أما يعلم أنه الواحد. و أن الواحد يحب الوجدانية في المحبة، و يحب الواحد في محبته.

إذا قربك بطريق غيره نقصت محبتك له عز و جل و شعبت فربما دخلك الميل إلى من ظهرت

المواصله و النعمه على يديه، فتنقص محبة الله في قلبك، و هو عز و جل غيور لا يحب شريكه فكف أيدي الغير عنك بالمواصله و لسانه عن حمدك و ثنائك و رجليه عن السعي إليك كيلا تشتغل به عنه، أما سمعت قول النبي صلى الله عليه و سلم : (جبلت القلوب على حب من أحسن إليها) فهو عز و جل يكف الخلق عن الإحسان إليك من كل وجه و سبب حتى توحده و تحبه، و تصير له من كل وجه بظاهرك و باطنك في حركاتك و سكناتك، فلا ترى الخير إلا منه و لا الشر إلا منه عز و جل ، و تفنى عن الخلق و عن النفس، و عن الهوى و الإرادة و المنى، و عن جميع ما سوى المولى، ثم يطلق الأيدي إليك بالبسط و البذل و العطاء، و الألسن بالحمد و الثناء فبدلك ابدأً في الدنيا ثم في العقبى، فلا تسئ الأدب، انظر إلى من ينظر إليك، و اقبل على من أقبل إليك، و أحب من يحبك و استجب من يدعوك و أعط يدك من يثبثك من سقطك و يخرجك من ظلمات جهلك، و ينجيك من هلكك و يغسلك من نجاسك، و ينظفك من أوسخاك، و يخلصك من جيفك و نتنك، و من أوهامك الرديه، و من نفسك الأماره بالسوء و أقرانك الضلال المضلين شياطينك، و أخلائك الجهال قطاع طريق الحق الحائلين بينك و بين كل نفيس و ثمين و عزيز.

إلى متى المعاد، إلى متى الحق، إلى متى الهوى، إلى متى الرعونه، إلى متى الدنيا، إلى متى الآخرة، إلى متى سوى المولى؟ أين أنت من خالفك و الأشياء، و المكون الأول الآخر الظاهر الباطن، و المرجع و المصدر إليه، و له القلوب و طمأنينه الأرواح و محط الأتقال و العطاء و الامتنان، عز شأنه.

المقالة الثالثة والستون في نوع من المعرفة

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : رأيت في المنام كأنني أقول يا مشرك بربه في باطنه بنفسه و في ظاهره بخلقه و في عمله بإرادته، فقال رجل إلى جنبي ما هذا الكلام، فقلت هذا نوع من أنواع المعرفة.

المقالة الرابعة والستون في الموت الذي لا حياة فيه و الحياة التي لا موت فيها

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : ضاق أباي الأمر يوماً فتحرك في النفس، فقيل لي : ماذا تريد؟؟؟ فقلت: أريد موتاً لا حياة فيه و حياة لا موت فيها؟؟؟ فقيل لي: ما الموت الذي لا حياة فيه و ما الحياة التي لا موت فيها؟؟؟ قلت:

الموت الذي لا حياة فيه موتى عن جنسي من الخلق فلا أراهم في الضر و النفع، و موتى عن

نفسى و هوائى و إرادتى و منائى فى الدنيا و الأخرى فلا أحس فى جميع ذلك و لا أجد.

و أما الحياة التى لا موت فيها: فحياتى بفعل ربى عزّ و جلّ بلا وجودى فيه، و الموت فى ذلك وجودى معه عزّ و جلّ، فكانت هذه الإرادة أنفس إرادتها منذ عقلت.

المقالة الخامسة والستون

فى النهى عن التسخط على الله فى تأخير إجابة الدعاء

قال رضى الله تعالى عنه و أرضاه : ما هذا التسخط على ربك عزّ و جلّ من تأخير إجابة الدعاء؟؟ تقول حرم على السؤال للخلق و أوجب على السؤال و أنا أدعوه و هو لا يجيبنى فيقال لك أحر أنت أم عبد فإن قلت أنا حر فأنت كافر و غن قلت أنا عبد لله، فيقال لك أمتهم أنت لوليك فى تأخير إجابة دعائك و شك فى حكمته و رحمته بك و بجميع خلقه و علمه بأحوالهم أو غير متهم له عزّ و جلّ؟؟ فإن كنت غير متهم له و مقر بحكمته و إرادته و مصلحته لك و تأخير ذلك فعليك بالشكر له عزّ و جلّ، لأنه اختار لك الأصلح و النعمة و دفع الفساد، و إن كنت متهماً له فى ذلك فأنت كافر بتهمتك له، لأنك بذلك نسبت له الظلم و هو ليس بظلام للعبيد، لا يقبل الظلم و يستحيل عليه أن يظلم إذ هو مالكك و مالك كل شئ فلا يطلق عليه اسم الظالم، و إنما الظالم من يتصرف فى ملك غيره بغير إذنه فانسد عليك سبيل التسخط عليه فى فعله فيك بما يخالف طبعك و شهوة نفسك و إن كان فى الظاهر مفسدة لك.

فعليك بالشكر و الصبر و الموافقة، و ترك السخط و التهمة و القيام مع رعونة النفس و هواها الذى يضل عن سبيل الله.

و عليك بدوام الدعاء و صدق الانتجاع، و حسن الظن بربك عزّ و جلّ، و انتظار الفرج منه، و التصديق بوعدده، و الحياء منه، و الموافقة لأمره، و حفظ توحيده و المسارعة إلى أداء أوامره، و التماوت عن نزول قدره بك و بفعله فيك، و إن كان لابد أن تتهم و تسئ الظن بنفسك الأمانة بالسوء العاصية لربها عزّ و جلّ أولى بهما، و نسبتك الظلم إليها أحرى من مولاك. فاحذر موافقتها و موالاتها، و الرضى بفعلها و كلامها فى الأحوال كلها، لأنها عدوة الله و عدوتك، و موالية لعدو الله و عدوك الشيطان الرجيم، هى خليلته و جاسوسته و مصافيته، الله الله ثم الله، الحذر الحذر النجا النجا، أتهمها و أنسب الظلم إليها و اقرأ عليها قوله عزّ و جلّ : { مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ } النساء 147. وقوله عزّ و جلّ : { إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ } يونس 44. و غيرها من الآيات و الأخبار.

كن مخلصاً لله على نفسك مجادلاً لها عنه عزّ و جلّ، و محارباً و سيفاً و صاحب جنده و عسكريه، فإنها أعدى عدو الله عزّ و جلّ، قال الله تعالى : " يا داود أهدر هوك فإنه لا منازع ينازعنى فى ملكى غير الهوى ".

المقالة السادسة والستون في الأمر بالدعاء و النهى عن تركه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تقل لا أدعو الله، فإن كان ما أسأله مقسوماً فسيأتي إن سألته أو لم أسأله، و إن كان غير مقسوم فلا يعطيني بسؤال، بل أسأله عزّ و جلّ جميع ما تريد و تحتاج إليه من خير الدنيا و الآخرة ما لم يكن فيه محرم و مفسدة لأن الله تعالى أمر بالسؤال له و حث عليه. قال تعالى : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } . غافر 60. و قال عزّ و جلّ : { وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ } { و أسألوا الله من فضله } . النساء 32. قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اسألوا الله ببطون أكفكم) و غير ذلك من الأخبار. و لا تقل إني أسأله فلا يعطيني فإذا لا أسأله، بل دم على دعائه، فإن كان ذلك مقسوماً ساقه إليك بعد أن تسأله، فيزيد ذلك إيماناً و يقيناً و توحيداً و ترك سؤال الخلق و الرجوع إليه في جميع أحوالك و إنزال حوائجك به عزّ و جلّ ، و إن لم يكن مقسوماً لك أعطاك الغناء عنه و الرضا عنه عزّ و جلّ بالقصص. فإن كان فقراً أو مرضاً أرضاك بهما و إن كان ديناً قلب الدائن من سوء المطالبة إلى الرفق و التأخير و التسهيل إلى حين ميسرتك أو إسقاطه عنك أو نقصه، فإن لم يسقط و لم يترك منه في الدنيا أعطاك عزّ و جلّ ثواباً جزيلاً ما لم يعطك بسؤالك في الدنيا، لأنه كريم غني رحيم، فلا يخيب سائله في الدنيا و الآخرة فلا بد من فائدة، و نائلة إما عاجلاً و إما أجلاً فقد جاء في الحديث: (المؤمن يرى في صحيفته يوم القيامة حسنات لم يعملها و لم يدر بها فيقال له أتعرفها ؟ فيقول ما أعرفها من أين لي هذه ؟ فيقال له إنها بدل مسألتك التي سألتها في دار الدنيا) و ذلك أنه بسؤال الله عزّ و جلّ يكون ذكراً لله و موحداً و واضح الشئ في موضعه، و معطي الحق أهله، و متبرئاً من حوله و قوته، و تاركاً للتكبر و التعظيم و الأنفة، و جميع ذلك أعمال صالحة ثوابها عند الله عزّ و جلّ.

المقالة السابعة والستون في جهاد النفس و تفصيل كيفيته

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : كلما جاهدت نفسك و غلبتها و قتلتها بسيف المخالفة أحيها الله، و نازعتك و طلبت منك الشهوات و اللذات الجناح منها و المباح، لتعود إلى المجاهدة ليكتب لك ثواباً دائماً، و هو معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) أراد مجاهدة النفس لدوامها و استمرارها على الشهوات و اللذات، و إنهاكها في المعاصي، و هو معنى قوله عزّ و جلّ : { وَاَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } . الحجر 99. أمر الله عزّ و جلّ لنبيه صلى الله عليه وسلم بالعبادة و هي مخالفة النفس، لأن العبادة كلها تأبأها النفس و تريد ضدها إلى أن يأتيه اليقين يعني الموت.

فإن قيل : كيف تأبى نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم العبادة و هو عليه والصلاة و السلام لا هوى له {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}. النجم 3-4. فيقال أنه عز و جلّ خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم ليتقرر به الشرع فيكون عاماً بين أمته إلى أن تقوم الساعة. ثم إن الله عز و جلّ أعطى نبيه عليه الصلاة و السلام القوة على النفس و الهوى، كيلا يضراه و يحوجه إلى المجاهدة، بخلاف أمته، فإذا دام المؤمن على هذه المجاهدة إلى أن يأتيه الموت و يلحق برية عز و جلّ بسيف مسلول ملطخ بدم النفس و الهوى أعطاه ما ضمن له من الجنة، لقوله عز و جلّ : {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}. المنتزعات 40-41. فإذا أدخله الجنة و جعلها داره و مقره و مصيره، أمن من التحويل عنها و الانتقال إلى غيرها و العودة إلى دار الدنيا جدد له كل يوم و كل ساعة من أنواع النعيم و تغير عليه أنواع الحال و الحلى إلى ما لا نهاية و لا غاية و لا نفاذ، كما جدد في الدنيا كل يوم و كل ساعة و لحظة مجاهدة النفس و الهوى.

و أما الكافر و المنافق و العاصي لما تركوا مجاهدة النفس و الهوى في الدنيا و تابعوها، و وافقوا الشيطان تمرجوا في أنواع المعاصي من الكفر و الشرك و ما دونهما حتى أتاهم الموت من غير الإسلام و التوبة، أدخلهم الله النار التي أعدت للكافرين في قوله عز و جلّ : {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}. آل عمران 131. فإذا أدخلهم فيها و جعلها مقرهم و صيرهم، فأحرق جلودهم و لحومهم جدد لهم عز و جلّ جلوداً و لحوماً كما قال عز و جلّ : {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}. النساء 56. يفعل عز و جلّ بهم ذلك كما وافقوا أنفسهم و أهواءهم في الدنيا في معاصيه عز و جلّ، فأهل النار تجدد لهم كل وقت جلود و لحوم لإيصال العذاب و الآلام إليهم. و سبب ذلك مجاهدة النفس و عدم موافقتها في دار الدنيا و هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الدنيا مزرعة الآخرة).

المقالة الثامنة والستون

في قوله تعالى : (كل يوم هو في شأن)

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : إذا أجاب الله عبداً ما سأله و أعطاه ما طلبه لم تتخرم إرادته و لا ما جف به القلم و سبق به العلم، لكنه يوافق سؤاله مراد ربه عز و جلّ في وقته، فتحصل الإجابة و قضاء الحاجة في الوقت المقدر الذي قدره له في السابقة لبلوغ القدر وقته كما قال أهل العلم قوله عز و جلّ : {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}. الرحمن 29. أي يسوق المقادير إلى المواقيت، يعطى الله أحداً شيئاً في الدنيا بمجرد دعائه، و كذلك لا يصرف عنه شيئاً بدعائه المجرد، و الذي ورد في الحديث (و لا يرد القضاء إلا الدعاء) قيل إن المراد به لا يرد القضاء إلا الدعاء الذي قضى أن يرد لقضائه، و كذلك لا يدخل أحد الجنة في الآخرة بعمله، بل برحمة الله عز و جلّ، لكنه يعطى العباد في الجنة الدرجات على قدر أعمالهم.

و قد ورد في حديث عائشة رضي الله عنها (أنها سألت النبي صلى الله عليه و سلم هل يدخل أحد الجنة بعمله؟ فقال لا برحمة الله، فقالت و لا أنت؟ فقال و لا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته و وضع يده على هامته) و ذلك لأن الله عزّ و جلّ لا يجب عليه لأحد حق و لا يلزمه الوفاء بالعهد، بل يفعل ما يريد يعذب من يشاء و يغفر لمن يشاء، و يرحم من يشاء، فعال لما يريد و لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، يرزق من يشاء بغير حساب بفضل رحمته و منته، و يمنع من شاء بعدله، و كيف لا يكون كذلك و الخلق من لدن العرش إلى الثرى التي هي الأرض السابعة السفلى ملكه و صنعه، لا مالك لهم غيره و لا صانع لهم غيره، قال عزّ و جلّ : { هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ } .فاطر3. و قال تعالى : { أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ } .النمل60-61-62-63-64. و قال تعالى : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } .مريم65. و قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } .آل عمران26-27.

المقالة التاسعة والستون

في الأمر بطلب المغفرة و العصمة
و التوفيق و الرضا و الصبر من الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا تطلبنّ من الله شيئاً سوى المغفرة للذنوب السابقة و العصمة منها في الأيام الآتية اللاحقة، و التوفيق لحسن الطاعة، و امتثال الأمر و الرضا بمر القضاء، و الصبر على شدائد البلاء، و الشكر على جزيل النعماء و العطاء، ثم الوفاة بخاتمة الخير، و اللحوق بالأنبياء و الصديقين و الشهداء و الصالحين و حسن أولئك رفيقاً و لا تطلب منه الدنيا و لا كشف الفقر و البلاء إلى الغناء و العافية، بل الرضا بما قسم و دبر، و أسأله الحفظ الدائم على ما أقامك فيه و أحلك و ابتلاك، إلى أن ينقلك منه إلى غيره و ضده، لأنك لا تعلم الخير في أيهما، في الفقر أو في الغناء، في البلاء أو في العافية، طوى عنك علم الأشياء و تفرد هو عزّ و جلّ بمصالحها و مفسدها.

فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا أبالي على أي حال أصبح، على ما أكره أو على ما أحب، لأنني لا أدري الخير في أيهما. قال ذلك لحسن رضاه بتدبير الله عزّ و جلّ، و الطمأنينة على اختياره و قضائه. قال الله تعالى : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } .البقرة216.

كن على هذا الحال إلى أن يزول هواك و تنكسر نفسك فتكون ذليلة مغلوبة تابعة ثم تزول إرادتك و أمانيك، و تخرج الأكوام من قلبك و لا يبقى في قلبك شئ سوى الله تعالى، فيمتلئ

قلبك بحب الله تعالى، و تصدق إرادتك في طلبه عزّ و جلّ فيرد إليك الإرادة بأمره بطلب حظ من الحظوظ دنيوية و أخروية، فحينئذ تسأله عزّ و جلّ بذلك و تطلبه ممتثلاً لأمره، إن أعطاك شكرته و تلبست به، و إن منعك لم تتسخط عليه و لم تتغير عليه في باطنك و لا تتهمه في ذلك ببخل، لأنك لم تكن طلبته بهواك و إرادتك، لأنك فارغ القلب عن ذلك غير مرید له، بل ممتثلاً لأمره بالسؤال و السلام.

المقالة السبعون في الشكر و الاعتراف بالتقصير

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : كيف يحسن منك العجب في أعمالك و رؤية نفسك فيها و طلب الأعواض عليها، و جميع ذلك بتوفيق الله تعالى و عونته و قوته و إرادته و فضله، و إن كان ترك معصيته فبعصمته و حفظه و حميته.

أين أنت من الشكر على ذلك و الاعتراف بهذه النعم التي أولاكها، ما هذه الرعونة و الجهل، تعجب بشجاعة غيرك و سخائه و بذل ماله إذا لم تكن قاتلاً بعودك إلا بعد معاونة شجاع ضرب في عدوك ثم تمنيت قتله، لولاه كنت مصروعاً مكانه و بدله، و لا باذلاً لبعض مالك إلا بعد ضمان صادق كريم أمين ضمن لك عوضه و خلفه، لولا قوله و طمعك فيما وعد لك و ضمن لك ما بذلت حبة منه، كيف تعجبك بمجرد فعلك.

أحسن حالك الشكر و الثناء على المعين و الحمد لله الدائم و إضافة ذلك إليه في الأحوال كلها إلا الشر و المعاصي و اللوم، فإنك تضيفها إلى نفسك و تنسبها إلى الظلم و سوء الأدب و تنتهما به، فهي أحق بذلك لأنها مأوى لكل شر و أمانة بكل سوء و داهية و إن كان هو عزّ و جلّ خالقك و خالق أفعالك مع كسبك، أنت الكاسب و هو الخالق كما قال بعض العلماء بالله عزّ و جلّ :
تجئ و لا بد منك، و قوله صلى الله عليه و سلم : (اعملوا و قاربوا و سدّدوا فكل ميسر لما خلق له).

المقالة الحادية السبعون في المرید والمراد

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لا يخلو إما أن تكون مریداً أو مراداً.

فإن كنت مریداً فأنت محمل و حمال يحمل كل شديد و ثقيل، لأنك طالب و الطالب مشقوق عليه حتى يصل إلى مطلوبه و يظفر بمحبوبه و يدرك مرامه، و لا ينبغي لك أن تنفر من بلاء ينزل بك في النفس و المال و الأهل و الولد، إلى أن يحط عنك الأعمال، و يزال عنك الأثقال، و يرفع عنك الآلام و يزال عنك الأذى و الإذلال، فتصان عن جميع الرذائل و الأدران و الأوساخ و المهانات و الافتقار إلى الخليفة و البريات، فتدخل في زمرة المحبوبين المدللين المرادين.

و إن كنت مراداً فلا تتهمن الحق عزّ و جلّ في إنزال البلية بك أيضاً، و لا تشكن في منزلتك و قدرك عنده عزّ و جلّ، لأنه قد يبتليك ليبلغك مبلغ الرجل، و يرفع منزلتك إلى منازل الأولياء.

أتحب ما يحط منزلتك عن منازلهم و درجاتك عن درجاتهم و أن تكون خلعتك و أنوارك و نعيمك دون ما لهم، فإن رضيت أنت بالدون فالحق عزّ و جلّ لا يرضى لك بذلك . قال تعالى : {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} . البقرة 216+232. آل عمران 66. النور 19. يختار لك الأعلى و الأسنى و الأرفع و الأصلىح و أنت تأبى.

فإن قلت: كيف يصلح ابتلاء المراد مع هذا النعيم و البيان مع أن الابتلاء إنما هو للمحب، و المدلل إنما هو المحبوب.

يقال لك ذكرنا الأغلب أولاً و سمرنا بالنادر الممكن ثانياً.

لا خلاف أن النبي صلى الله عليه و سلم كان سيد المحبوبين أشد الناس بلاء، و قد قال صلى الله عليه و سلم (لقد خفت في الله ما لا يخافه أحد، و لقد أوديت في الله لم يؤذه أحد، و لقد أتى علي ثلاثون يوماً و ليلة و ما لنا طعام إلا شيء يواريه إبط بلال) و قد قال صلى الله عليه و سلم (إنا معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل) و قد قال صلى الله عليه و سلم (أنا أعرفكم بالله و أشدكم منه خوفاً) فكيف يبتلى المحبوب و يخوف المدلل المراد و لم يكن ذلك إلا بما أشرنا إليه من بلوغ المنازل العالية في الجنة لأن المنازل في الجنة لا تشيد و لا ترفع بالأعمال في الدنيا.

الدنيا مزرعة الآخرة، و أعمال الأنبياء و الأولياء بعد أداء الأوامر و انتهاء النواهي و الصبر و الرضا و الموافقة في حالة البلاء يكشف عنهم البلاء و يواصلون بالنعيم و الفضل و الدلال و اللقاء أبد الآباد، و الله أعلم.

المقالة الثانية والسبعون
في من إذا دخل الأسواق و مال إلى ما فيها
و من إذا دخلها و صبر

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : الذين يدخلون الأسواق من أهل الدين و النسك في خروجهم إلى أداء ما أمر الله تعالى من صلاة الجمعة و الجماعة و قضاء حوائج تسنح لهم على أضرب :

منهم من إذا دخل السوق و رأى فيه من أنواع الشهوات و اللذات تقيد بهما و علقت بقلبه فتن، و كان ذلك سبب هلاكه و تركه دينه و نسكه و رجوعه إلى موافقة طبعه و إتباع هواه إلا أن يتداركه عزّ و جلّ برحمته و عصمته و إصباره إياه عنها فتسلم.

و منهم من إذا رأى ذلك كاد أن يهلك بها رجع إلى عقله و دينه و تصبر و تجرع مرارة تركها، فهو كالمجاهد ينصره الله تعالى على نفسه و طبعه و هواه، و يكتب له الثواب الجزيل في الآخرة. كما جاء في بعض الأخبار عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : (يكتب للمؤمنين بترك شهوة عند العجز عنها أو عند المقدرة سبعون حسنة) أو كما قال.

و منهم من يتناولها و يتلبس بها و يحصلها بفضل نعمة الله عزّ و جلّ التي عنده من سعة الدنيا و المال، و يشكر الله عزّ و جلّ عليها.

و منهم من لا يراها و لا يشعر بها، فهو أعمى عن ما سوى الله عزّ و جلّ، فلا يرى غيره، و أصم عما سواه فلا يسمع من غيره، عنده شغل عن النظر إلى غير محبوبه و اشتهاؤه، فهو في معزل عما العالم فيه فإذا رايتّه و قد دخل السوق فسألته عما رأى في السوق يقول ما رأيت شيئاً. نعم قد رأى الأشياء لكن قدر رآها ببصر رأسه لا ببصر قلبه، و نظرة فجاءت لا نظرة شهوة، نظر صورة لا نظر معنى، نظر الظاهر لا نظر الباطن، فبظاهره ينظر إلى ما في السوق و بقلبه ينظر إلى ربه عزّ و جلّ، إلى جلاله تارة و إلى جماله تارة أخرى.

و منهم من إذا دخل السوق امتلأ قلبه بالله عزّ و جلّ رحمة لهم، فتشغله الرحمة لهم عن النظر إلى ما لهم و بين أيديهم فهو في حين دخوله إلى حين خروجه في الدعاء و الاستغفار و الشفاعة لأهله و الشفقة و الرحمة عليهم و لهم، و عينه مغرورقة و لسانه في ثناء و حمد لله عزّ و جلّ بما أولى الكافة من نعمه و فضله فهذا يسمى شحنة البلاد و العباد، و إن شئت سميته عارفاً و بدلاً و زاهداً و عالماً غيباً و بدلاً محبوباً مراداً و نائباً في الأرض على عبادته، و سفيراً و جهبذاً و نفاذاً و هادياً و مهدياً و دالاً و مرشداً فهذا هو الكبريت الأحمر و بيضة العقق، رضوان الله عليه و على كل مؤمن مرید الله وصل إلى انتهاء المقام، و الله الهادي.

المقالة الثالثة والسبعون في قسم من الأولياء قد يطلعه الله على عيوب غيرهم

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : قد يُطلع الله تعالى وليه على عيوب غيره و كذبه و دعوته و شركه في أفعاله و أقواله و إضماره و نيته، فيغار ولي الله لربه و لرسوله و دينه فيشتد غضب باطنه ثم ظاهره حاضراً و غائباً، كيف يدعى السلامة مع العلل و الأوجاع الباطنة والظاهرة؟؟ و كيف يدعى التوحيد مع الشرك، و الشرك كفر و بعد عن قرب الله و هو صفة العدو و الشيطان اللعين، و المنافقين المقطوع لهم بالدرك الأسفل من النار و الخلود فيها فيجرب على لسان الولي ذكر عيوبه و أفعاله الخبيثة و وقاحته بعريض دعاويه أحوال الصديقين و مزاحمته للفانين في قدر الله و فعله، و المراد من على وجه الغيرة لله عزّ و جلّ، مرة على وجه الإنكار له و الموعظة له أخرى، و على وجه الغلبة بفعل الله عزّ و جلّ و إرادته و شدة غضبه على الكذب أخرى فيضاف إلى الله عزّ و جلّ غيبة، فيقال أيغتاب الولي و هو يمنع منها أو يذكر الغائب و الحاضر بما يظهر عند الخواص و العوام؟؟ فيصير ذلك الإنكار في حقهم كما قال الله عزّ و جلّ : {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}. البقرة 219. في الظاهر إنكار المنكر و في الباطن إسقاط الربّ و الاعتراض عليه فيصير حاله الخيرة، فيكون فرضه فيها السكوت و التسليم و طلب المساعي لذلك في الشرع، و الجواز لا الاعتراض على الربّ و الولي يطعنان لافترائه و كذبه، و قد يكون ذلك سبباً لإقلاعه و توبته و رجوعه عن جهله و حيرته، فيكون كرهاً للولي نفعاً للمغرور الهالك بغروره و رعونته. {وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}. البقرة 213. النور 46.

المقالة الرابعة والسبعون فيما ينبغي للعاقل أن يستدل به على وحدانية الله تعالى

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أول ما ينظر العاقل في صفة نفسه و تركيبه ثم في جميع المخلوقات و المبدعات فيستدل بذلك على خالقها و بمدعها، لأن فيه دلالة على الصانع و في القدرة المحكمة آية على الحكيم، فإن الأشياء كلها موجودة به.

و في معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ}. الجاثية 13. فقال في كل شئ اسم من أسمائه و اسم كل شئ من اسمه، فإنما أنت بين أسمائه و صفاته و أفعاله، باطن بقدرته و ظاهر بحكمته، ظهر بصفاته و بطن بذاته حجب الذات بالصفات و حجب الصفات بالأفعال، و كشف العلم بالإرادة و أظهر الإرادة بالحركات، و أخفى الصنع و الصنعية و أظهر الصنعة بالإرادة، فهو باطن في

غيبه و ظاهر في حكمته و قدرته {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. الشورى 11.

و لقد أظهر في هذا الكلام من أسرار المعرفة ما لا يظهر إلا من مشكاة فيها مصباح، أمره برفع يد العصمة اللهم فقهه في الدين و علمه التأويل، أنالنا الله تعالى بركاتهم و حشرنا في زميرتهم و حرمتهم آمين.

المقالة الخامسة والسبعون في التصوف و على أي شئ مبناه

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أوصيك بتقوى الله و طاعته، و لزوم ظاهر الشرع و سلامة الصدر، و سخاء النفس، و بشاشة الوجه، و بدل الندى، و كف الأذى، و تحمل الأذى و الفقر، و حفظ حرمان المشايخ و العشرة مع الإخوان، و النصيحة للأصاغر و الأكابر، و ترك الخصومة، و الإرفاق، و ملازمة الإيثار و مجانبة الادخار، و ترك صحبة من ليس من طبقتهم، و المعاونة في أمر الدين و الدنيا.

و حقيقة الفقر أن لا تفتقر على من هو مثلك و حقيقة الغنى أن تستغني عن من هو مثلك.

و التصوف ليس أخذ عن القيل و القال و لكن أخذ عن الجوع و قطع المألوفات و المستحسنات، و لا تبدأ الفقير بالعلم و إبدائه بالرفق، فإن العلم يوحشه و الرفق يؤنسه.

و التصوف مبني على ثمان خصال :

السخاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام
الرضا لسيدنا إسحاق عليه السلام
الصبر لسيدنا أيوب عليه السلام
الإشارة لسيدنا زكريا عليه السلام
الغربة لسيدنا يحيى عليه السلام
التصوف لسيدنا موسى عليه السلام
السياسة لسيدنا عيسى عليه السلام
الفقر لسيدنا محمد صلى الله عليه و سلم

و على إخوانه من النبيين و المرسلين و آل كل و صحب كل و سلم أجمعين

المقالة السادسة والسبعون في الوصية

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : أوصيك أن تصحب الأغنياء بالتعزز، و الفقراء بالتذلل، و عليك بالتذلل و الإخلاص، و هو دوام رؤية الخالق، و لا تتهم الله في الأسباب و استكن إليه في جميع الأحوال، و لا تضع حق أخيك اتكالاً على ما بينك و بينه من المودة.

و عليك بصحبة الفقراء بالتواضع و حُسن الأدب و السخاء، و أمت نفسك حتى تحيي، و أقرب الخلق من الله تعالى أوسعهم خلقاً، و أفضل الأعمال : رعاية السر عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى.

و الصولة بالحق و الصبر، و حسبك من الدنيا شيئان : صحبة فقير و خدمة ولي، و الفقير هو الذي لا يستغنى بشئ دون الله تعالى.

و الصولة على من هو دونك ضعف، و على من هو فوقك فخر، و على من هو مثلك سوء خلق.

و الفقر و التصوف جدان فلا تخلطهما بشئ من الهزل، وفقنا الله و إياكم و المسلمين آمين.

يا ولي عليك بذكر الله في كل حال فإنه للخير جامع. و عليك بالاعتصام بحبل الله فإنه للمضار دافع. و عليك بالتأهب لتلقى موارد القضاء فإنه واقع.

و أعلم أنك مسئول عن حركاتك و سكناتك، فاشتغل بما هو أولى في الوقت و إياك و فضول تصرفات الجوارح.

و عليك بطاعة الله و رسوله و من والاه و أد إليه حقه و لا تطالبه بما يجب عليه، و ادع في كل حال.

و عليك بحسن الظن في المسلمين و إصلاح النية لهم، و تسعى بينهم في كل خير، و أن لا تبيت و لأحد في قلبك شر و لا شحناء و لا بغض، و أن تدعو لمن ظلمك، و راقب الله عز و جل.

و عليك بأكل الحلال، و السؤال لأهل العلم بالله فيما لا تعلم، و عليك بالحياء من الله سبحانه و تعالى.

و أجعل صحبتك مع من الله معه و أصحاب من سوى الله بصحبته، و تصدق في كل صباح بقرصك و إذا أمسيت فصل صلاة الجنابة على كل من مات من المسلمين في ذلك اليوم و إذا صليت المغرب فصلاة الاستخارة و تقول بكرة و عشياً سبع مرات (اللهم أجرنا من النار) و حافظ على قول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ }.الحشر22. إلى آخر سورة الحشر، و الله الموفق و المعين، إذ لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المقالة السابعة والسبعون في الوقوف مع الله و الفناء عن الخلق

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : كن مع الله عزّ وجلّ كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله عزّ وجلّ بلا خلق وجدت، وعن الكل فنيت. وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت، وأترك الكل على باب خلوتك، وأدخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرّك، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس ويأتي مكانها أمر الله وقربه، فإذن جهلك علم، وبعذك قرب، وصمتك ذكر، ووحشتك أنس.

يا هذا : ما ثم إلا خلق وخالق، فإذا اخترت الخالق فقل لهم : {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ}.الشعراء77.

ثم قال رضي الله عنه و أرضاه : من ذاق عرف، فقليل له : من غلبت عليه مرارة صفوته كيف يجد حلاوة الذوق؟؟ فقال : يتعمل في الشهوات من قبله بقصد وتكلف.

يا هذا : المؤمن إذا عمل صالحاً انقلبت نفسه قلباً وأدرك مدركات القلب، ثم انقلب قلبه سرّاً ثم انقلب الفناء فصار وجوداً وبقاء.

ثم قال رضي الله عنه و أرضاه : الأحباب يسعهم كل باب.

يا هذا : الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة، ثم لحوقك بالمنهاج الأول، وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع.

إن أردت هذا فعليك بالإسلام ثم الاستسلام، ثم العلم بالله ثم المعرفة ثم الوجود. وإذا كان وجودك له كان كلك له.

الزهد عمل ساعة ، و الورع عمل ساعتين ، و المعرفة عمل الأبد.

المقالة الثامنة والسبعون في أهل المجاهدة و المحاسبة و أولى العزم و بيان خصالهم

قال رضي الله تعالى عنه و أرضاه : لأهل المجاهدة و المحاسبة و أولى العزم عشر خصال جربوها، فإذا أقاموها و أحكموها بإذن الله تعال وصلوا إلى المنازل الشريفة :

(الأولى) أن لا يحلف بالله عزّ و جلّ صادقاً و لا كاذباً عامداً و لا ساهياً، لأنه إذا أحكم ذلك من نفسه و عود لسانه رفعه ذلك إلى ترك الحلف ساهياً و عامداً، فإذا اعتاد ذلك فتح الله له باب من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه، و رفعه في درجة و قوة في عزمه و في صبره و الثناء عند الإخوان، و الكرامة عند الجيران حتى يهتم به من يعرفه و يهابه من يراه.

(الثانية) يجتنب الكذب لا هزلاً و لا جاداً، لأنه إذا فعل ذلك و أحكمه من نفسه و اعتاده لسانه شرح الله تعالى به صدره و صفا به علمه، كأنه لا يعرف الكذب، و إذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه و عيره به في نفسه، و إن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب.

(الثالثة) أن يحذر أن يعد أحداً شيئاً فيخلفه، و يقطع العدة البتة فإنه أقوى لأمره و أقصد بطريقه، لأن الخلف من الكذب فإذا فعل ذلك فتح له باب السخاء و درجة الحياء و أعطى مودة في الصادقين و رفعة عند الله جل ثناؤه.

(الرابعة) أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق، أو يؤذى ذرة فما فوقها، لأنها من أخلاق الأبرار و الصديقين، و له عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدنيا مع ما يدخر له من الدرجات، و يستنقذ من مصارع الهلاك، و يسلمه من الخلق، و يرزقه رحمة العباد، و يقربه منه عزّ و جلّ.

(الخامسة) أن يجتنب الدعاء على أحد من الخلق و إن ظلمه فلا يقطع بلسانه، و لا يكافئه بقول و لا فعل، فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها إلى الدرجات العلى. و إذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا و الآخرة، و المحبة و المودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب و بعيد، و إجابة الدعوة و الغلوة في الخلق، و عز في الدنيا في قلوب المؤمنين.

(السادسة) أن لا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك و لا كفر و لا نفاق، فإنه أقرب للرحمة، و أعلى في الدرجة و هي تمام السنة، و أبعد عن الدخول في علم الله، و أبعد من مقت الله و أقرب إلى رضا الله تعالى و رحمته، فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرحمة للخلق أجمعين.

(السابعة) أن يجتنب النظر إلى المعاصي و يكف عنها جوارحه، فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب و الجوارح في عاجل الدنيا، مع ما يدخره الله له من خير الآخرة. نسأل الله أن يمن علينا أجمعين و يعلمنا بهذه الخصال، و أن يخرج شهواتنا عن قلوبنا.

(الثامنة) يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة صغيرة و لا كبيرة، بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين مما أحتاج إليه و استغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين و شرف المتقين، و به يقوى على الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و يكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة، فإذا كان كذلك نقله الله إلى الغناء و اليقين و الثقة به عزّ و جلّ، و لا يرفع أحداً سواه، و تكون الخلق عنده في الحق سواء، و يقطع بأن هذه الأسباب عز المؤمنين و شرف المتقين، و هو أقرب باب الإخلاص.

(التاسعة) ينبغي له أن يقطع طعمه من الأدميين، و لا يطعم نفسه فيما في أديهم، فإنه العز الأكبر، و الغنى الخاص، و الملك العظيم، و الفخر الجليل، و اليقين الصافي، و التوكل الشافي الصريح و هو باب من أبواب الثقة بالله عزّ و جلّ، و هو باب من أبواب الزهد، و به ينال الورع و يكمل نسكه، و هو من علامات المنقطعين إلى الله عزّ و جلّ.

(العاشرة) التواضع لأنه به يشيد محل العابد و تعلو منزلته، و يستكمل العز و الرفعة عند الله سبحانه و عند الخلق، و يقدر على ما يريد من أمر الدنيا و الآخرة و هذه الخصلة أصل الخصال و كلها و فرعها و كمالها، و بها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين من الله تعالى في السراء و الضراء و هي كمال التقوى.

و التواضع : هو أن لا يلقى العبد أحداً من الناس إلا رأى له الفضل عليه، و يقول عسى أن يكون عند الله خيراً مني و أرفع درجة، فإن كان صغيراً قال هذا لم يعص الله تعالى و أنا قد عصيت فلا شك أنه خير مني، و إن كان كبيراً قال هذا عبد الله قبلي، و إن كان عالماً هذا أعطي ما لم أبلغ، و نال ما لم أنل، و علم ما جهلت، و هو يعمل بعلمه و إن كان جاهلاً قال هذا عصي الله بجهل و أنا عصيته بعلم، و لا أدري بما يختم لي و بما يختم له، و إن كان كافراً قال لا أدري عسى أن يسلم فيختم له بخير العمل، و عسى أن أكفر فيختم لي بسوء العمل، و هذا باب الشفقة و الوجل، و أولى ما يصحب و آخر ما يبقى على العباد، فإذا كان العبد كذلك سلمه الله تعالى من الغوائل، و بلغ به منازل النصيحة لله عزّ و جلّ و كان من أصفياء الرحمن و أحبائه، و كان من أعداء إبليس عدو الله لعنه الله و هو باب الرحمة ومع ذلك يكون قطع باب الكبر و جبال العجب، و رفض درجة العلو في نفسه في الدين و الدنيا و الآخرة، و هو مخ العبادة، و غاية شرف الزاهدين، و سيما الناسكين، فلا شئ منه فضل، و مع ذلك يقطع لسانه عن ذكر العالمين و ما لا يعنى، فلا يتم له عمل إلا به، و يخرج الغل و الكبر و البغي من قلبه في جميع أحواله، و كان لسانه في السر و العلانية واحداً، و مشيئته في السر و العلانية واحدة، و كلامه كذلك، و الخلق عنده في النصيحة واحد، و لا يكون من الناصحين، و هو يذكر أحداً من خلق الله بسوء أو يعيره بفعل، أو يحب أن يذكره عنده واحداً بسوء. و هذه آفة العابدين، و عطب النساك، و هلاك الزاهدين إلا من أعانه الله تعالى و حفظ لسانه و قلبه برحمته و فضله و إحسانه.

تمت بعون الله

مقالات سيدي الغوث الأعظم قدس الله سره

رسالة في شرح كلمات من

فتوح الغيب

فصل

تعليق ابن تيمية

الثلاثة ترجع إلى امثال الأمر

حكم المباحات وأنواعها

سلوك الأبرار وسلوك المقربين

الناس في المباحات على ثلاثة أقسام

حكم الإلهام في الشريعة

المؤمن والقدر

فصل

فصل: أمر الجيلاني بالفناء عن الخلق

والهوى والإرادة

تعليق ابن تيمية

كلام الجيلاني عن علامات الفناء

تعليق ابن تيمية

تعليق ابن تيمية

تعليق ابن تيمية

فصل

اني تابع كلام الجيل

تعليق ابن تيمية

فصل: تابع كلام الجيلاني

تعليق ابن تيمية

فصل

الفلاسفة ضالون كافرون من وجوه

[عدل] رسالة في شرح كلمات من فتوح الغيب

هذا كتاب يشتمل على شرح كلمات رويت عن الشيخ الإمام العالم، الناسك الزاهد، عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى، في كتابه المعروف بفتوح الغيب وشرحها شيخ الإسلام، ومفتي الشام، الإمام العالم العامل، الزاهد الورع، تقي الدين أبو العباس أحمد، بن عبد الحليم، بن عبد السلام، بن تيمية الحراني، نفع الله به، وأثابه الجنة، وغفر له ولجميع المسلمين، أمين، ومتعه الله بالثناء الجميل، والعطاء الجزيل.

بسم الله الرحمن الرحيم، توكلت على الله.

قال شيخنا الإمام العلامة شيخ الإسلام، أبو العباس أحمد، بن عبد الحليم، بن عبد السلام، العالم الرباني، والعالم النوراني بن تيمية، رضي الله عنه وأرضاه:

الحمد لله نعمه ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيرا.

[عدل] فصل

قال الشيخ أبو محمد عبد القادر الكيلاني في كتاب فتوح الغيب: لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء: أمر يمتثله. ونهي يجتنبه. وقد يرضى به. فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من أحد هذه الأشياء الثلاثة فينبغي له أن يلزم همها قلبه وليحدث بها نفسه ويأخذ بها الجوارح في سائر أحواله".

[عدل] تعليق ابن تيمية

قلت: هذا كلام شريف جامع يحتاج إليه كل أحد، وهو تفصيل لما يحتاج إليه العبد، وهي مطابقة لقوله تعالى { إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين } ولقوله تعالى: { وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا } ولقوله تعالى: { وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور }.

فإن التقوى تتضمن: فعل المأمور وترك المحذور والصبر يتضمن: الصبر على المقدور. فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر وهو طاعة الله ورسوله.

فحقيقة الأمر أن كل عبد فإنه محتاج في كل وقت إلى طاعة الله ورسوله وهو: أن يفعل في ذلك الوقت ما أمر به في ذلك الوقت.

وطاعة الله ورسوله هي عبادة الله التي خلق لها الجن والإنس. كما قال تعالى: { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } وقال تعالى: { واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } وقال تعالى: { يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون }.

والرسل كلهم أمروا قومهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وقال تعالى: { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } وقال تعالى: { واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون }.

[عدل] الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر

وإنما كانت الثلاثة ترجع إلى امتثال الأمر؛ لأنه في الوقت الذي يؤمر فيه بفعل أمور من الفرائض كالصلوات الخمس والحج ونحو ذلك، يحتاج إلى فعل ذلك المأمور.

وفي الوقت الذي تحدث أسباب المعصية يحتاج إلى الامتناع والكرهه والإمساك عن ذلك وهذا فعل لما أمر به في هذا الوقت وأما من لم تخطر له المعصية ببال فهذا لم يفعل شيئاً يؤجر عليه ولكن عدم ذنبه مستلزم لسلامته من عقوبة الذنب، والعدم المحض المستمر لا يؤمر به وإنما يؤمر بأمر يقدر عليه العبد وذلك لا يكون إلا حادثاً: سواء كان إحداث إيجاد أمر أو إعدام أمر.

وأما القدر الذي يرضى به فإنه إذا ابتلي بالمرض أو الفقر أو الخوف فهو مأمور بالصبر أمر إيجاب، ومأمور بالرضا إما أمر إيجاب، وإما أمر استحباب؛ وللعلماء من أصحابنا وغيرهم في ذلك قولان ونفس الصبر والرضا بالمصائب هو طاعة لله ورسوله فهو من امتثال الأمر وهو عبادة لله.

لكن هذه الثلاثة وإن دخلت في امتثال الأمر عند الإطلاق فعند التفصيل والاقتران: إما أن تخص بالذكر وإما أن يقال يراد بهذا ما لا يراد بهذا كما في قوله: { فاعبده وتوكل عليه } وقوله: { فاعبدي وأقم الصلاة لذكري } فإن هذا داخل في العبادة إذا أطلق اسم العبادة، وعند الاقتران إما أن يقال: ذكر عموماً وخصوصاً، وإما أن يقال: ذكره خصوصاً يغني عن دخوله في العام.

ومثل هذا قوله تعالى { إياك نعبد وإياك نستعين } وقوله: { واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلاً } { رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً } { واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً } وقد يقال: لفظ " التبتل " لا يتناول هذه الأمور المعطوفة كما يتناولها لفظ العبادة والطاعة.

و بالجمله فرق ما بين ما يؤمر به الإنسان ابتداء وبين ما يؤمر به عند حاجته إلى جلب المنفعة ودفع المضرة أو عند حب الشيء وبغضه.

وكلام الشيخ يدور على هذا القطب وهو أن يفعل المأمور ويترك المحذور ويخلو فيما سواهما عن إرادة؛ لئلا يكون له هو مراد غير فعل ما أمره به ربه، وما لم يؤمر به العبد، بل فعله الرب عز وجل بلا واسطة العبد أو فعله بالعبد بلا هوى من العبد. فهذا هو القدر الذي عليه أن يرضى به.

وسياتي من كلام الشيخ ما يبين مراده وأن العبد في كل حال عليه أن يفعل ما أمر به ويترك ما نهى عنه. وأما إذا لم يكن هو أمرا للعبد بشيء من ذلك فما فعله الرب كان علينا التسليم فيما فعله وهذه هي " الحقيقة " في كلام الشيخ وأمثاله.

وتفصيل الحقيقة الشرعية في هذا المقام أن هذا نوعان: أحدهما أن يكون العبد مأمورا فيما فعله الرب. إما بحب له وإعانة عليه. وإما ببغض له ودفع له. والثاني أن لا يكون العبد مأمورا بواحد منهما.

فالأول مثل البر والتقوى الذي يفعله غيره فهو مأمور بحبه وإعانتة عليه: كإعانة المجاهدين في سبيل الله على الجهاد وإعانة سائر الفاعلين للحسنات على حسناتهم بحسب الإمكان وبمحببة ذلك والرضا به وكذلك هو مأمور عند مصيبة الغير: إما بنصر مظلوم وإما بتعزية مصاب وإما بإغناء فقير ونحو ذلك.

وأما ما هو مأمور ببغضه ودفعه فمثل: ما إذا أظهر الكفر والفسوق والعصيان فهو مأمور ببغض ذلك ودفعه وإنكاره بحسب الإمكان كما قال النبي في الحديث الصحيح: " من رأى منكرا فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان ".

[[عدل](#)] حكم المباحات وأنواعها

وأما ما لا يؤمر العبد فيه بواحد منهما: فمثل ما يظهر له من فعل الإنسان للمباحات التي لم يتبين له أنه يستعان بها على طاعة ولا معصية. فهذه لا يؤمر بحبها ولا ببغضها وكذلك مباحات نفسه المحضة التي لم يقصد الاستعانة بها على طاعة ولا معصية. مع أن هذا نقص منه فإن الذي ينبغي أنه لا يفعل من المباحات إلا ما يستعين به على الطاعة ويقصد الاستعانة بها على الطاعة فهذا سبيل المقربين السابقين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ولم يزل أحدهم يتقرب إليه بذلك حتى أحبه فكان سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها.

وأما من فعل المباحات مع الغفلة أو فعل فضول المباح التي لا يستعان بها على طاعة مع أداء الفرائض واجتناب المحارم باطنا وظاهرا فهذا من المقتصدين أصحاب اليمين.

وبالجملة الأفعال التي يمكن دخولها تحت الأمر والنهي لا تكون مستوية من كل وجه بل إن فعلت على الوجه المحبوب كان وجودها خيرا للعبد، وإلا كان تركها خيرا له وإن لم يعاقب عليها ففضول المباح التي لا تعين على الطاعة عدمها خير من وجودها إذا كان مع عدمها يشتغل بطاعة الله فإنها تكون شاغلة له عن ذلك وأما إذا قدر أنها تشغله عما دونها فهي خير له مما دونها وإن شغلته عن معصية الله كانت رحمة في حقه وإن كان اشتغاله بطاعة الله خيرا له من هذا وهذا.

وكذلك أفعال الغفلة والشهوة التي يمكن الاستعانة بها على الطاعة: كالنوم الذي يقصد به الاستعانة على العبادة؛ والأكل والشرب واللباس والنكاح الذي يمكن الاستعانة به على العبادة؛ إذا لم يقصد به ذلك كان ذلك نقصا من العبد وفوات حسنة؛ وخير يحبه الله.

ففي الصحيحين عن النبي { أنه قال لسعد: إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى اللقمة تضعها في في امرأتك { وقال في الحديث الصحيح: { نفقة المسلم على أهله يحسبها صدقة { .

فما لا يحتاج إليه من المباحات أو يحتاج إليه ولم يصحبه إيمان يجعله حسنة فعدمه خير من وجوده إذا كان مع عدمه يشتغل بما هو خير منه. وقد قال النبي { في بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله يأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر. قال: أرأيتم لو وضعها في الحرام أما كان عليه وزر؟ قالوا: بلى قال: فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له بها أجر. فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال { .

وذلك أن المؤمن عند شهوة النكاح يقصد أن يعدل عما حرمه الله إلى ما أباحه الله؛ ويقصد فعل المباح معتقدا أن الله أباحه " { والله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته { كما روى ذلك الإمام أحمد في المسند ورواه غيره ولهذا أحب القصر والفطر في السفر، فعدول المؤمن عن الرهبانية والتشديد وتعذيب النفس الذي لا يحبه الله إلى ما يحبه الله من الرخصة هو من الحسنات التي يثيبه الله عليها وإن فعل مباحا لما اقترن به من الاعتقاد والقصد الذين كلاهما طاعة لله ورسوله. فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

وأياها فالعبد هو مأمور بفعل ما يحتاج إليه من المباحات هو مأمور بالأكل عند الجوع والشرب عند العطش ولهذا يجب على المضطر إلى الميتة أن يأكل منها ولو لم يأكل حتى مات كان مستوجبا للوعيد كما هو قول جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وغيرهم وكذلك هو مأمور بالوطة عند حاجته إليه بل وهو مأمور بنفس عقد النكاح إذا احتاج إليه وقدر عليه.

فقول النبي { في بضع أحدكم صدقة } فإن المباشرة مأمور بها
لحاجته ولحاجة المرأة إلى ذلك فإن قضاء حاجتها التي لا تنقضي
إلا به بالوجه المباح صدقة.

[عدل] سلوك الأبرار وسلوك المقربين

و السلوك سلوكان: سلوك الأبرار أهل اليمين وهو أداء الواجبات،
وترك المحرمات باطنا وظاهرا. و(الثاني): سلوك المقربين
السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان وترك
المكروه والمحرم كما قال النبي { إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه.
وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم }.

وكلام الشيوخ الكبار كالشيخ عبد القادر وغيره يشير إلى هذا
السلوك؛ ولهذا يأمرهم بما هو مستحب غير واجب وينهون عما هو
مكروه غير محرم فإنهم يسلكون بالخاصة مسلك الخاصة وبالعامّة
مسلك العامّة.

وطريق الخاصة طريق المقربين ألا يفعل العبد إلا ما أمر به ولا
يريد إلا ما أمر الله ورسوله بإرادته وهو ما يحبه الله ويرضاه
ويريده إرادة دينية شرعية وإلا فالحوادث كلها مرادة له خلقا
وتكوينا. والوقوف مع الإرادة الخلقية القدرية مطلقا غير مقدور
عقلا ولا مأمور شرعا.

وذلك لأن من الحوادث ما يجب دفعه ولا تجوز إرادته كمن أراد
تكفير الرجل أو تكفير أهله أو الفجور به أو بأهله أو أراد قتل النبي
وهو قادر على دفعه أو أراد إضلال الخلق، وإفساد دينهم ودنياهم
فهذه الأمور يجب دفعها وكرهاتها؛ لا تجوز إرادتها.

وأما الامتناع عقلا؛ فلأن الإنسان مجبول على حب ما يلائمه
وبغض ما ينافره فهو عند الجوع يحب ما يقوته كالطعام ولا يحب ما

لا يقبته كالتراب فلا يمكن أن تكون إرادته لهذين سواء. وكذلك يحب الإيمان والعمل الصالح الذي ينفعه ويبغض الكفر والفسوق الذي يضره بل ويحب الله وعبادته وحده ويبغض عبادة ما دونه.

كما قال الخليل: { أفرايتم ما كنتم تعبدون } { أنتم وأباؤكم الأقدمون } { فإنهم عدو لي إلا رب العالمين }.

وقال تعالى: { قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده }.

فقد أمرنا الله أن نتأسى بإبراهيم والذين معه إذ تبرءوا من المشركين ومما يعبدونه من دون الله.

وقال الخليل: { إنني براء مما تعبدون } { إلا الذي فطرني فإنه سيهدين } والبراءة ضد الولاية وأصل البراءة البغض وأصل الولاية الحب.

وهذا لأن حقيقة التوحيد ألا تحب إلا الله وتحب ما يحبه الله فلا تحب إلا الله ولا تبغض إلا الله. قال تعالى: { ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله }.

والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله والمشركون يحبون غير الله مع الله كحب المشركين لآلهتهم وحب النصارى للمسيح وحب أهل الأهواء رءوسهم.

فإذا عرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره. لم يمكن أن تستوي إرادته لجميع الحوادث فطرة وخلقاً ولا هو مأمور

من جهة الشرع أن يكون مريدا لجميع الحوادث بل قد أمره الله بإرادة أمور وكرهه أخرى.

والرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها لا بتحويل الفطرة وتغييرها. وقد قال النبي " { كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه } " قال تعالى: { فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون }.

وفي الحديث الصحيح عن النبي - - { يقول الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا }. والحنيفية هي الاستقامة بإخلاص الدين لله وذلك يتضمن حبه تعالى والذل له لا يشرك به شيئا لا في الحب ولا في الذل فإن العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل وذلك لا يستحقه إلا الله وحده وكذلك الخشية والتقوى لله وحده والتوكل على الله وحده.

والرسول يطاع ويحب فالحلال ما حله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه. قال الله تعالى: { ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقوه فأولئك هم الفائزون } وقال تعالى: { ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون }.

وهذا حقيقة دين الإسلام. والرسل بعثوا بذلك كما قال تعالى: { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه } وقال تعالى: { يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم } { وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون }.

فهذا هو الأصل الذي يجب على كل أحد أن يعتصم به فلا بد أن يكون مريدا محبا لما أمره الله بإرادته ومحبته كارها مبغضا لما أمره الله بكرهاته وبغضه.

والناس في هذا الباب أربعة أنواع: أكملهم الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله، ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكرهاته وليس عندهم حب ولا بغض لغير ذلك. فيأمرون بما أمر الله ورسوله به ولا يأمرون بغير ذلك، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله ولا ينهون عن غير ذلك.

وهذه حال الخليلين أفضل البرية: محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: { إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا }.

وقال في الحديث الصحيح: { إني والله لا أعطي أحدا ولا أمنع أحدا وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت }.

وذكر: أن ربه خيره بين أن يكون نبيا ملكا؛ وبين أن يكون عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا. فإن النبي الملك مثل داود وسليمان.

قال تعالى: { هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب } قالوا: معناه أعط من شئت وامنع من شئت لا نحاسبك.

فالنبي الملك يعطي بإرادته لا يعاقب على ذلك كالذي يفعل المباحات بإرادته. وأما العبد الرسول فلا يعطي ولا يمنع إلا بأمر ربه وهو محبته ورضاه وإرادته الدينية والسابقون المقربون أتباع العبد الرسول والمقتصدون أهل اليمين أتباع النبي الملك.

وقد تكون للإنسان حال هو فيها خال عن الإرادتين: وهو ألا تكون له إرادة في عطاء ولا منع، لا إرادة دينية هو مأمور بها ولا إرادة نفسانية سواء كان منهيها عنها أو غير منهي عنها بل ما وقع كان مرادا له ومهما فعل به كان مرادا له من غير أن يعرف المأمور به شرعا في ذلك.

فهذا بمنزلة من له أموال يعطيها وليس له إرادة في إعطاء معين لا إرادة شرعية ولا إرادة مذمومة؛ بل يعطي كل أحد. فهذا إذا قدر أنه قام بما يجب عليه بحسب إمكانه ولكنه خفي عليه الإرادة الشرعية في تفصيل أفعاله. فإنه لا يذم على ما فعل ولا يمدح مطلقا. بل يمدح لعدم هواه ولو علم تفصيل المأمور به وأراده إرادة شرعية لكان أكمل. بل هذا مع القدرة إما واجب وإما مستحب. وحال هذا خير من حال من يريد بحكم هواه ونفسه؛ وإن كان ذلك مباحا له وهو دون من يريد بأمر ربه لا بهواه ولا بالقدر المحض.

[عدل] الناس في المباحات على ثلاثة أقسام

فمضمون هذا المقام أن الناس في المباحات من الملك والمال وغير ذلك على ثلاثة أقسام:

قوم لا يتصرفون فيها إلا بحكم الأمر الشرعي. وهو حال نبينا . وهو حال العبد الرسول ومن اتبعه في ذلك.

وقوم يتصرفون فيها بحكم إرادتهم والشهوة التي ليست محرمة. وهذا حال النبي الملك. وهو حال الأبرار أهل اليمين. و(قوم لا يتصرفون بهذا ولا بهذا). أما الأول فلعدم علمهم به. وأما الثاني فلزهدهم فيه؛ بل يتصرفون فيها بحكم القدر المحض اتباعا لإرادة الله الخلقية القدرية حين تعذر معرفة الإرادة الشرعية الأمرية وهذا

كالترجيح بالقرعة إذا تعذر الترجيح بسبب شرعي معلوم وقد يتصرف هؤلاء في هذا المقام بإلهام يقع في قلوبهم وخطاب.

وكلام الشيخ عبد القادر كثيرا ما يقع في هذا المقام؛ فإنه يأمر بالزهد في إرادة النفس وهواها حتى لا يتصرف بحكم الإرادة والنفس وهذا رفع له عن حال الأبرار أهل اليمين وعن طريق الملوك مطلقا ومن حصل هذا وتصرف بالأمر الشرعي المحمدي القرآني فهو أكمل الخلق لكن هذا قد يخفى عليه؛ فإن معرفة هذا على التفصيل قد يتعذر أو يتعسر في كثير من المواضع.

ألا ترى أن النبي لما حكم سعد بن معاذ في بني قريظة فحكم بقتل مقاتلتهم، وبسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم. قال: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة { . وذلك أن تخيير ولي الأمر بين القتل والاسترقاق، والمن والفداء ليس تخيير شهوة بل تخيير رأي ومصصلحة فعليه أن يختار الأصلح، فإن اختار ذلك فقد وافق حكم الله وإلا فلا.

ولما كان هذا يخفى كثيرا قال النبي في الحديث الصحيح لبريدة: { إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك، وحكم أصحابك { .

والحاكم الذي ينزل أهل الحصن على حكمه عليه أن يحكم باجتهاده فلما أمر سعدا بما هو الأَرْضَى لله والأحب إليه حكم بحكمه ولو حكم بغير ذلك لنفذ حكمه فإنه حكم باجتهاده وإن لم يكن ذلك هو حكم الله في الباطن.

[عدل] حكم الإلهام في الشريعة

ففي مثل هذه الحال التي لا يتبين الأمر الشرعي في الواقعة المعينة يأمر الشيخ عبد القادر وأمثاله من الشيوخ: تارة بالرجوع إلى الأمر الباطن والإلهام إن أمكن ذلك وتارة بالرجوع إلى القدر المحض لتعذر الأسباب المرجحة من جهة الشرع كما يرجح الشارع بالقرعة. فهم يأمرون ألا يرجح بمجرد إرادته وهواه فإن هذا إما محرم وإما مكروه وإما منقص، فهم في هذا النهي كنهيمهم عن فضول المباحات.

ثم إن تبين لهم الأمر الشرعي وجب الترجيح به وإلا رجحوا: إما بسبب باطن من الإلهام والذوق وإما بالقضاء والقدر الذي لا يضاف إليهم.

ومن يرجح في مثل هذه الحال باستخارة الله كما كان النبي يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمهم السورة من القرآن فقد أصاب.

وهذا كما أنه إذا تعارضت أدلة المسألة الشرعية عند الناظر المجتهد وعند المقلد المستفتي فإنه لا يرجح شيئاً. بل ما جرى به القدر أقروه ولم ينكروه. وتارة يرجح أحدهم: إما بمنام وإما برأي مشير ناصح وإما برؤية المصلحة في أحد الفعلين.

وأما الترجيح بمجرد الاختيار بحيث إذا تكافأت عنده الأدلة يرجح بمجرد إرادته واختياره. فهذا ليس قول أحد من أئمة الإسلام وإنما هو قول طائفة من أهل الكلام ولكن قاله طائفة من الفقهاء في العامي المستفتي: إنه يخير بين المفتين المختلفين.

وهذا كما أن طائفة من السالكين إذا استوى عنده الأمران في الشريعة رجح بمجرد ذوقه وإرادته فالترجيح بمجرد الإرادة التي لا تستند إلى أمر علمي باطن ولا ظاهر لا يقول به أحد من أئمة العلم

والزهد. فائمة الفقهاء والصوفية لا يقولون هذا. لكن من جوز لمجتهد أو مقلد الترجيح بمجرد اختياره وإرادته فهو نظير من شرع للسالك الترجيح بمجرد إرادته وذوقه.

لكن قد يقال: القلب المعمور بالتقوى إذا رجح بإرادته فهو ترجيح شرعي. وعلى هذا التقدير ليس من هذا فمن غلب على قلبه إرادة ما يحبه الله وبغض ما يكرهه إذا لم يدر في الأمر المعين هل هو محبوب لله أو مكروه ورأى قلبه يحبه أو يكرهه كان هذا ترجيحاً عنده. كما لو أخبره من صدقه أغلب من كذبه فإن الترجيح بخبر هذا عند انسداد وجوه الترجيح ترجيحاً بدليل شرعي.

ففي الجملة متى حصل ما يظن معه أن أحد الأمرين أحب إلى الله ورسوله كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي والذين أنكروا كون الإلهام طريقاً شرعياً على الإطلاق أخطئوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق.

ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى فاللهام مثل هذا دليل في حقه؛ قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة؛ والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه.

وفي الترمذي عن أبي سعيد عن النبي أنه قال: { اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله تعالى { إن في ذلك لآيات للمتوسمين } { .

وقال عمر بن الخطاب: اقتربوا من أفواه المطيعين؛ واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.

وقد ثبت في الصحيح قول الله تعالى: { ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي }.

وفي مثل هذا يقال حديث وابصة عن النبي أنه قال: "البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك، وإن أفتوك وأفتوك". وفي صحيح مسلم حديث النواس بن سمعان عن النبي أنه قال: "البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس". وقال ابن مسعود: الإثم حواز القلوب.

وأيضاً فالله - تعالى - فطر عباده على الحنيفية: وهي حب المعروف وبغض المنكر فإذا لم تستحل الفطرة فالقلوب مفطورة على الحق فإذا كانت الفطرة مقومة بحقيقة الإيمان منورة بنور القرآن وخفي عليها دلالة الأدلة السمعية الظاهرة ورأى قلبه يرجح أحد الأمرين كان هذا من أقوى الأمارات عند مثله.

وذلك أن الله علم القرآن والإيمان. قال تعالى: { وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب } ثم قال: { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا }.

وقال جندب بن عبد الله، وعبد الله بن عمر: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً.

وفي الصحيحين عن حذيفة عن النبي قال: { إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة }.

وفي الترمذي - بإسناد جيد - وغيره حديث النواس بن سمعان عن النبي أنه قال: { ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي

الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط. فالصراط المستقيم هو الإسلام، والستور حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادي - أو كما قال - : يا عبد الله لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن .{

فقد بين أن في قلب كل مؤمن واعظاً، والواعظ الأمر والنهي بترغيب وترهيب؛ فهذا الأمر والنهي الذي يقع في قلب المؤمن مطابق لأمر القرآن ونهيه ولهذا يقوى أحدهما بالآخر.

كما في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي أنه قال: { مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر }.

وقد قال بعض السلف في قوله: { نور على نور } قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بأثر، فإذا سمع بالأثر كان نورا على نور. نور الإيمان الذي في قلبه يطابق نور القرآن، كما أن الميزان العقلي يطابق الكتاب المنزل؛ فإن الله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

والإلهام في القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب، فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر.

وفي الصحيحين عن النبي أنه قال: { قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم }. والمحدث هو الملهم المخاطب.

وأيضاً فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقينا أو ظنا فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى فإنه إلى كشفها أحوج لكن هذا في الغالب لا بد أن يكون كشفاً بدليلاً وقد يكون بدليلاً ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه وهذا أحد ما فسر به معنى الاستحسان.

وقد قال من طعن في ذلك - كأبي حامد وأبي محمد -: ما لا يعبر عنه فهو هوس وليس كذلك؛ فإنه ليس كل أحد يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه، وكثير من الناس يبينها بياناً ناقصاً وكثير من أهل الكشف يلقي في قلبه أن هذا الطعام حرام أو أن هذا الرجل كافر أو فاسق من غير دليل ظاهر وبالعكس قد يلقي في قلبه محبة شخص وأنه ولي لله أو أن هذا المال حلال.

وليس المقصود هنا بيان أن هذا وحده دليل على الأحكام الشرعية؛ لكن إن مثل هذا يكون ترجيحاً لطالب الحق إذا تكافأت عنده الأدلة السمعية الظاهرة. فالترجيح بها خير من التسوية بين الأمرين المتناقضين قطعاً فإن التسوية بينهما باطلة قطعاً. كما قلنا: إن العمل بالظن الناشئ عن ظاهر أو قياس خير من العمل بنقيضه إذا احتيج إلى العمل بأحدهما.

والصواب الذي عليه السلف والجمهور أنه لا بد في كل حادثة من دليل شرعي فلا يجوز تكافؤ الأدلة في نفس الأمر لكن قد تتكافأ عند الناظر لعدم ظهور الترجيح له وأما من قال: أنه ليس في نفس الأمر حق معين بل كل مجتهد عالم بالحق الباطن في المسألة وليس

لأحدهما على الآخر مزية في علم ولا عمل فهؤلاء قد يجوزون أو بعضهم تكافؤ الأدلة ويجعلون الواجب التخيير بين القولين.

وهؤلاء يقولون ليس على الظن دليل في نفس الأمر؛ وإنما رجحان أحد القولين هو من باب الرجحان بالميل والإرادة كترجيح النفس الغضبية للانتقام والنفس الحليمة للعفو.

وهذا القول خطأ؛ فإنه لا بد في نفس الأمر من حق معين يصيبه المستدل تارة ويخطئه أخرى. كالكعبة في حق من اشتبهت عليه القبلة والمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى جهة وسقط عنه الفرض بالصلاة إليها كالمجتهد إذا أداه اجتهاده إلى قول فعمل بموجبه كلاهما مطيع لله وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله وله أجر على ذلك؛ وليس مصيبا بمعنى أنه علم الحق المعين؛ فإن ذلك لا يكون إلا واحدا ومصيبه له أجران.

وهذا في كشف الأنواع التي يكون عليها دليل شرعي لكن قد يخفى على العبد. فإن الشارع بين الأحكام الكلية. وأما أحكام المعينات التي تسمى تنقيح المناط مثل كون الشخص المعين عدلا أو فاسقا ومؤمنا أو منافقا أو وليا لله أو عدوا له وكون هذا المعين عدوا للمسلمين يستحق القتل، وكون هذا المال يخاف عليه من ظلم ظالم، فإذا زهد فيه الظالم انتفع به أهله.

فهذه الأمور لا يجب أن تعلم بالأدلة الشرعية العامة الكلية بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها. ومن طرق ذلك "الإلهام" فقد يلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين وحال هذا الشخص المعين وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره.

وقصة الخضر مع موسى هي من هذا الباب ليس فيها مخالفة لشرع الله؛ فإنه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله لكن

فيها علم حال ذاك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن له وغيره لم يعلم، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها لعلمه بأنه أتى بها هدية له ونحو ذلك. ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح.

والنوع الثاني عكس هذا. وهو أنهم يتبعون هواهم لا أمر الله؛ فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمررون إلا بما يحبونه بهواهم ولا يتركون وينهون إلا عن ما يكرهونه بهواهم وهؤلاء شر الخلق. قال تعالى: { أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا } قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه.

وقال تعالى: { ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله } وقال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه ويخالفه إذا خالف هواه فإذا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق وتعاقب على ما خالفته. وهو كما قال - رضي الله عنه - لأنه في الموضعين إنما قصد اتباع هواه لم يعمل لله.

ألا ترى أن أبا طالب نصر النبي وذب عنه أكثر من غيره؛ لكن فعل ذلك لأجل القرابة لا لأجل الله تعالى فلم يتقبل الله ذلك منه ولم يثبه على ذلك وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أعانه بنفسه وماله لله؛ فقال الله فيه: { وسيجنبها الأتقى } { الذي يؤتي ماله يتزكى } { وما لأحد عنده من نعمة تجزى } { إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى } { ولسوف يرضى }.

القسم الثالث: الذي يريد تارة إرادة يحبها الله؛ وتارة إرادة يبغضها الله. وهؤلاء أكثر المسلمين فإنهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه ويعصونه تارة فيريدون ما يهونونه وإن كان يكرهه.

والقسم الرابع: أن يخلو عن الإرادتين فلا يريد الله ولا لهواه وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء ويقع لكثير من الزهاد والنساک في كثير من الأمور.

وأما خلو الإنسان من الإرادة مطلقاً فممتنع فإنه مفطور على إرادة ما لا بد له منه وعلى كراهة ما يضره ويؤذيه والزاهد الناسك إذا كان مسلماً

فلا بد أن يريد أشياء يحبها الله: مثل أداء الفرائض، وترك المحارم؛ بل وكذلك عموم المؤمنين لا بد أن يريد أحدهم أشياء يحبها الله وإلا فمن لم يحب الله ولا أحب شيئاً لله فلم يحب شيئاً من الطاعات لا الشهادتين ولا غيرهما، ولا يريد ذلك فإنه لا يكون مؤمناً.

فلا بد لكل مؤمن من أن تكون له إرادة لبعض ما يحبه الله؛ وأما إرادة العبد لما يهواه ولا يحبه الله فهذا لازم لكل من عصى الله فإنه أراد المعصية والله لا يحبها ولا يرضاها.

وأما الخلو عن الإرادتين المحمودة والمذمومة فيقع على وجهين: (أحدهما): مع إعراض العبد عن عبادة الله تعالى وطاعته وإن علم بها فإنه قد يعلم كثيراً من الأمور أنه مأمور بها وهو لا يريدتها ولا يكره من غيره فعلها وإذا اقتتل المسلمون والكفار لم يكن مريداً لانتصار هؤلاء الذي يحبه الله ولا لانتصار هؤلاء الذي يبغضه الله.

والوجه الثاني: يقع من كثير من الزهاد الممتثلين لما يعلمون أن الله أمر به المجتنبين لما يعلمون أن الله نهى عنه وأمور أخرى لا يعلمون أنها مأمور بها ولا منهي عنها فلا يريدونها ولا يكرهونها لعدم العلم وقد يرضونها من جهة كونها مخلوقة مقدره وقد يعاونون عليها ويرون هذا موافقة لله وأنهم لما خلوا عن هوى النفس كانوا مأمورين بالرضا بكل حادث؛ بل والمعونة عليه.

وهذا موضع يقع فيه الغلط فإن ما أحبه الله ورسوله علينا أن نحب ما أحبه الله ورسوله وما أبغضه الله ورسوله فعلينا أن نبغض ما أبغضه الله ورسوله وأما ما لا يحبه الله ورسوله ولا يبغضه الله ورسوله كالأفعال التي لا تكليف فيها مثل أفعال النائم والمجنون فهذا إذا كان الله لا يحبها ويرضاها ولا يكرهها ويذمها فالمؤمن أيضا لا ينبغي أن يحبها ويرضاها ولا يكرهها.

[عدل] المؤمن والقدر

وأما كونها مقدورة ومخلوقة لله فذاك لا يختص بها بل هو شامل لجميع المخلوقات والله تعالى خلق ما خلقه لما شاء من حكمته وقد أحسن كل شيء خلقه.

والرضا بالقضاء ثلاثة أقسام:

أحدها: الرضا بالطاعات؛ فهذا طاعة مأمور بها.

والثاني: الرضا بالمصائب فهذا مأمور بها: إما مستحب وإما واجب.

و الثالث: الكفر والفسوق والعصيان، فهذا لا يؤمر بالرضا به، بل يؤمر ببغضه وسخطه، فإن الله لا يحبه ولا يرضاه. كما قال تعالى: { إذ يبيتون ما لا يرضى من القول }، وقال: { والله لا يحب الفساد }، وقال: { ولا يرضى لعباده الكفر }، وقال: { فإن الله لا يحب الكافرين }، وقال: { إن الله لا يحب المعتدين }، وقال: { والله لا يحب المفسدين }.

وهو وإن خلقه لما له في ذلك من الحكمة فلا يمتنع أن يخلق ما لا يحبه لإفضائه إلى الحكمة التي يحبها كما خلق الشياطين. فنحن راضون عن الله في أن يخلق ما يشاء وهو محمود على ذلك.

وأما نفس هذا الفعل المذموم وفاعله فلا نرضى به ولا نحمده. وفرق بين ما يحب لنفسه وما يراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضا من جهة أخرى؛ فإن الأمر الواحد يراد من وجه ويكره من وجه آخر. كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه؛ فإنه يبغض الدواء ويكرهه وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب لا لأنه في نفسه محبوب.

وفي الحديث الصحيح: "يقول الله تعالى: وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه". فهو سبحانه لما كره مساءة عبده المؤمن الذي يكره الموت كان هذا مقتضيا أن يكره إمامته مع أنه يريد إمامته؛ لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى.

فالأمر التي يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تحب ولا ترضى؛ لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها لما له في ذلك من الحكمة فكذلك الأفعال التي لا يحبها ولا يبغضها لا ينبغي أن تحب ولا ترضى كما لا ينبغي أن تبغض.

والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً. وقد ثبت في الصحيح عن النبي أنه قال: { من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً كان حقا على الله أن يرضيه }.

وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله إذ له الحمد على كل حال ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خلق لأجلها ما خلق وإن كنا نبغض ما يبغضه من المخلوقات فحيث انتفى الأمر الشرعي أو خفي الأمر الشرعي لا يكون الامتثال والرضا والمحبة كما يكون في الأمر الشرعي وإن كان ذلك مقدورا.

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلا عن عامتهم ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له،

فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له فهذا تكون حاله أحسن ممن نقص عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له. ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية ويبقى واقفا مع هواه والقدر.

ومن هؤلاء من يموت كافرا ومنهم من يتوب الله عليه ومنهم من يموت فاسقا ومنهم من يتوب الله عليه. وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية معرضين عن الأمر الشرعي ولا بد مع ذلك من اتباع أمر ونهي غير الأمر الشرعي إما من أنفسهم وإما من غير الله ورسوله إذ الاسترسال مع القدر مطلقا ممتنع لذاته لما تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء.

وقول من قال "إن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل" لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق عند أحد من المسلمين وإنما يقال ذلك في بعض المواضع؛ ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه. فلا بد أن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله.

[عدل] فصل

وكما أن الطريقة العلمية بصحة النظر في الأدلة والأسباب هي الموجبة للعلم: كتدبر القرآن والحديث فالطريقة العملية بصحة الإرادة والأسباب هي الموجبة للعمل، كعمارة الباطن بالمراقبة، والخوف من الله على كل حال، ولهذا يسمون السالك في ذلك المرید كما يسميه أولئك الطالب.

والنظر جنس تحته حق وباطل ومحمود ومذموم وكذلك الإرادة فكما أن طريق العلم لا بد فيه من العلم النبوي الشرعي بحيث يكون معلومك المعلومات الدينية النبوية ويكون علمك بها مطابقا لما أخبرت به الرسل وإلا فلا ينفك أي معلوم علمته ولا أي شيء اعتقدته فيما أخبرت به الرسل بل لا بد من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فكذلك الإرادة لا بد فيها من تعيين المراد وهو الله والطريق إليه وهو ما أمرت به الرسل. فلا بد أن تعبد الله، وتكون عبادتك إياه بما شرع على السنة رسله إذ لا بد من تصديق الرسول فيما أخبر علما ولا بد من طاعته فيما أمر عملا.

ولهذا كان الإيمان قولاً وعملاً مع موافقة السنة فعلم الحق ما وافق علم الله، والإرادة الصالحة ما وافقت محبة الله ورضاه وهو حكمه الشرعي والله عليم حكيم.

فالأمر الخبرية لا بد أن تطابق علم الله وخبره؛ والأمر العملية لا بد أن تطابق حب الله وأمره فهذا حكمه وذاك علمه.

وأما من جعل حكمه مجرد القدر كما فعل صاحب منازل السائرين وجعل مشاهدة العارف الحكم يمنعه أن يستحسن حسنة أو يستقبح سيئة فهذا فيه من الغلط العظيم ما قد نبهنا عليه في غير هذا الموضع.

فلا ينفك المرید القاصد أن يعبد أي معبود كان ولا أن يعبد الله بأي عبادة كانت بل هذه طريقة المشركين المبتدعين الذين لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله كالنصارى ومن أشبههم من أهل البدع الذين يعبدون غير الله بغير أمر الله.

وأما أهل الإسلام والسنة فهم يعبدون الله وحده ويعبدونه بما شرع. لا يعبدونه بالبدع إلا ما يقع من أحدهم خطأ. فالساكون طريق

الإرادة قد يغلطون تارة في المراد؛ وتارة في الطريق إليه وتارة يتألهون غير الله بالخوف منه والرجاء له والتعظيم والمحبة له وسؤاله والرغبة إليه فهذا حقيقة الشرك المحرم فإن حقيقة التوحيد أن لا يعبد إلا الله.

والعبادة تتضمن كمال الحب وكمال التعظيم، وكمال الرجاء والخشية والإجلال والإكرام. والفناء في هذا التوحيد هو فناء المرسلين وأتباعهم وهو أن تفنى بعبادته عن عبادة ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبسؤاله عن سؤال ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه، وبحبه والحب فيه عن محبة ما سواه والحب فيه.

وأما الغالطون في الطريق فقد يريدون الله؛ لكن لا يتبعون الأمر الشرعي في إرادته. لكن تارة يعبده أحدهم بما يظنه يرضيه ولا يكون كذلك. وتارة ينظرون إلى القدر لكونه مراده فيفنون في القدر الذي ليس لهم فيه غرض وأما الفناء المطلق فيه فممتنع. وهؤلاء يبقى أحدهم متبعا لذوقه ووجدته المخالف للأمر الشرعي أو ناظرا إلى القدر. وهذا يبئلى به كثير من خواصهم.

والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم، أمر بالتزام الشرع: الأمر والنهي، وتقديمه على الذوق والقدر، ومن أعظم المشايخ أمرا بترك الهوى والإرادة النفسية. فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة إنما تقع من هذه الجهة.

فهو يأمر السالك ألا تكون له إرادة من جهة هواه أصلا؛ بل يريد ما يريده الرب عز وجل: إما إرادة شرعية أن تبين له ذلك؛ وإلا جرى مع الإرادة القدرية فهو إما مع أمر الرب، وإما مع خلقه وهو سبحانه له الخلق والأمر.

وهذه طريقة شريفة صحيحة إنما يخاف على صاحبها من ترك إرادة شرعية لا يعلم أنها شرعية أو من تقديم إرادة قدرية على الشرعية فإنه إذا لم يعلم الشرعية فقد يتركها وقد يريد ضدها فيكون ترك مأمورا أو فعل محظورا وهو لا يعلم.

فإن طريقة الإرادة يخاف على صاحبها من ضعف العلم؛ وما يقترن بالعلم من العمل والوقوع في الضلال كما أن طريقة العلم يخاف على صاحبها من ضعف العمل وضعف العلم الذي يقترن بالعمل.

لكن لا يكلف الله نفسا إلا وسعها من هذا وهذا. قال تعالى: { فاتقوا الله ما استطعتم } فإذا تفقه السالك وتعلم الأمر والنهي بحسب اجتهاده وكان عمله وإرادته بحسب ذلك فهذا مستطاعه. وإذا أدى الطالب ما أمر به وترك ما نهي عنه وكان علمه مطابقا لعمله فهذا مستطاعه.

[عدل] فصل: أمر الجيلاني بالفناء عن الخلق والهوى والإرادة

قال الشيخ عبد القادر: "افن عن الخلق بحكم الله، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالى".

[عدل] تعليق ابن تيمية

قلت: فحكمه يتناول خلقه وأمره أي: افن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة الله والتوكل عليه فلا تطعمهم في معصية الله تعالى ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة.

وأما الفناء عن الهوى بالأمر وعن الإرادة بالفعل بأن يكون فعله موافقا للأمر الشرعي لا لهواه وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل الله لا لإرادة نفسه. فالإرادة تارة تتعلق بفعل نفسه وتارة بالمخلوقات.

فالأول يكون بالأمر والثاني لا تكون له إرادة. ولا بد في هذا أن يقيد بأن لا تكون له إرادة لم يؤمر بها وإلا فإذا أمر بأن يريد من المقدورات شيئاً دون شيء فليرد ما أمر بإرادته سواء كان موافقاً للقدر أم لا.

وهذا الموضوع قد يغلط فيه طائفة من السالكين والغالب على الصادقين منهم أنهم لم يعرفوا الإرادة الشرعية في ذلك المعين وهم ليس لهم إرادة نفسانية فتركوا إرادتهم لغير المقدور.

[عدل] كلام الجيلاني عن علامات الفناء

قال الشيخ: "علامة فنائك عن خلق الله انقطاعك عنهم، وعن التردد إليهم، واليأس مما في أيديهم".

[عدل] تعليق ابن تيمية

وهو كما قال. فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم وهذا يشبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر الله به ونهيهما عما نهاهم الله عنه كذهاب الرسل وأتباع الرسل إلى من يبلغون رسالات الله فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد. ليكون عابداً لله متوكلاً عليه وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر به؛ فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل أو مثله أو دونه كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب؛ بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه.

قال الشيخ: "وعلامة فنائك عنك وعن هواك: ترك التكسب، والتعلق بالسبب في جلب النفع، ودفع الضرر فلا تتحرك فيك بك، ولا تعتمد عليك لك ولا تنصر نفسك ولا تذب عنك لكن تكل ذلك كله إلى من

تولاه أو لا فيتولاه آخرا. كما كان ذلك موكولا إليه في حال كونك مغيبا في الرحم وكونك رضيعا طفلا في مهدك".

[عدل] تعليق ابن تيمية

قلت: وهذا لأن النفس تهوى وجود ما تحبه وينفعها، ودفع ما تبغضه ويضرها فإذا فني عن ذاك بالأمر فعل ما يحبه الله، وترك ما يبغضه الله فاعتاض بفعل محبوب الله عن محبوبه وبترك ما يبغضه الله عما يبغضه، وحينئذ فالنفس لا بد لها من جلب المنفعة ودفع المضرة فيكون في ذلك متوكلا على الله.

والشيخ رحمه الله ذكر هنا التوكل دون الطاعة؛ لأن النفس لا بد لها من جلب المنفعة، ودفع المضرة فإن لم تكن متوكلة على الله في ذلك واثقة به لم يمكن أن تتصرف عن ذلك فتمثل الأمر مطلقا؛ بل لا بد أن تعصي الأمر في جلب المنفعة ودفع المضرة فلا تصح العبادة لله، وطاعة أمره بدون التوكل عليه كما أن التوكل عليه لا يصح بدون عبادته وطاعته.

قال تعالى: { فاعبده وتوكل عليه } وقال تعالى: { ومن يتق الله يجعل له مخرجا } { ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه } وقال تعالى: { واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا } { رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا }.

والمقصود أن امتثال الأمر على الإطلاق لا يصح بدون التوكل والاستعانة ومن كان واثقا بالله أن يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يضره أمكن أن يدع هواه ويطيع أمر مولاه وإلا فنفسه لا تدعه يترك ما يقول إنه محتاج فيه إلى غيره.

كلام آخر للجيلاني عن علامة فناء إرادة العبد:

قال الشيخ: " وعلامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط فلا يكن لك غرض ولا تقف لك حاجة ولا مرام؛ لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها بل يجري فعله فيك فتكون أنت إرادة الله تعالى وفعله، ساكن الجوارح، مطمئن الجنان، مشروح الصدر، منور الوجه، عامر الباطن، غنيا عن الأشياء بخالقها تقلبك يد القدرة، ويدعوك لسان الأزل، ويعلمك رب الملل ويكسوك نورا منه والحلل، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول فتكون منكسرا أبداً، فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة، كالإناء المتثلث الذي لا يثبت فيه ماء ولا كدر، فتنبو عن أخلاق البشرية فلن يقبل باطنك شيئاً غير إرادة الله تعالى، فحينئذ يضاف إليك التكوين وخرق العادات، فيرى ذلك منك في ظاهر الفعل والحكم وهو فعل الله تبارك وتعالى حقا في العلم، فتدخل حينئذ في زمرة المنكسرة قلوبهم الذين كسرت إرادتهم البشرية، وأزيلت شهواتهم الطبيعية، واستؤنفت لهم إرادات ربانية وشهوات إضافية. كما قال النبي " حبيب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة " فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه وزال عنه، تحقيقاً لما أشرت إليه وتقدم، قال الله تعالى: { أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي } وساق كلامه. وفيه: { ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل } " الحديث.

[عدل] تعليق ابن تيمية

قلت: هذا المقام هو آخر ما يشير إليه الشيخ عبد القادر. وحقيقته أنه لا يريد كون شيء إلا أن يكون مأموراً بإرادته فقوله: علامة فناء إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراداً قط. أي لا تريد مراداً لم تؤمر بإرادته فأما ما أمرك الله ورسوله بإرادتك إياه فأرادته إما واجب وإما مستحب وترك إرادة هذا إما معصية وإما نقص.

وهذا الموضوع يلتبس على كثير من السالكين، فيظنون أن الطريقة الكاملة ألا يكون للعبد إرادة أصلا وأن قول أبي يزيد: " أريد ألا أريد " - لما قيل له: ماذا تريد؟ - نقص وتناقض؛ لأنه قد أراد، ويحملون كلام المشايخ الذين يمدحون بترك الإرادة على ترك الإرادة مطلقا.

وهذا غلط منهم على الشيوخ المستقيمين وإن كان من الشيوخ من يأمر بترك الإرادة مطلقا فإن هذا غلط ممن قاله فإن ذلك ليس بمقدور ولا مأمور.

فإن الحي لا بد له من إرادة، فلا يكون حي من الناس إلا أن تكون له إرادة. وأما الأمر فإن الإرادة التي يحبها الله ورسوله، ويأمر بها أمر إيجاب أو أمر استحباب، لا يدعها إلا كافر أو فاسق أو عاص إن كانت واجبة، وإن كانت مستحبة كان تاركها تاركا لما هو خير له.

والله تعالى قد وصف الأنبياء والصديقين بهذه الإرادة فقال تعالى: { ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه } وقال تعالى: { وما لأحد عنده من نعمة تجزى } { إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى } وقال تعالى: { إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا } وقال تعالى: { وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما } وقال تعالى: { ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا } وقال تعالى: { فاعبد الله مخلصا له الدين } { ألا الله الدين الخالص } وقال تعالى: { قل الله أعبد مخلصا له ديني } وقال تعالى: { واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا } وقال تعالى: { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }.

ولا عبادة إلا بإرادة الله ولما أمر به. وقال تعالى: { بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن } أي أخلص قصده لله. وقال تعالى: { وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين } وإخلاص الدين له هو إرادته وحده بالعبادة.

وقال تعالى: { يحبهم ويحبونه } وقال تعالى: { والذين آمنوا أشد حبا لله } وقال تعالى: { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله }. وكل محب فهو مرید.

وقال الخليل عليه السلام { لا أحب الأفلين } ثم قال: { إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض }.

ومثل هذا كثير في القرآن؛ يأمر الله بإرادته وإرادة ما يأمر به وينهى عن إرادة غيره وإرادة ما نهى عنه وقد قال النبي { إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه }.

فهما إرادتان: إرادة يحبها الله ويرضاها وإرادة لا يحبها ولا يرضاها بل إما نهى عنها وإما لم يأمر بها ولا ينهى عنها.

والناس في الإرادة ثلاثة أقسام:

قوم يريدون ما يهوونه فهو لاء عبيد أنفسهم والشيطان.

وقوم يزعمون أنهم فرغوا من الإرادة مطلقا ولم يبق لهم مراد إلا ما يقدره الرب وأن هذا المقام هو أكمل المقامات. ويزعمون أن من قام بهذا فقد

قام بالحقيقة وهي الحقيقة القدريّة الكونية؛ وأنه شهد القيومية العامة ويجعلون الفناء في شهود توحيد الربوبية هو الغاية؛ وقد يسمون

هذا: الجمع والفناء والاصطلام ونحو ذلك. وكثير من الشيوخ زلقوا في هذا الموضوع.

وفي هذا المقام كان النزاع بين الجنيد بن محمد وبين طائفة من أصحابه الصوفية؛ فإنهم اتفقوا على شهود توحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكه وهو شهود القدر؛ وسموا هذا مقام الجمع فإنه خرج به عن الفرق الأول وهو الفرق الطبيعي بإرادة هذا وكراهة هذا، ورؤية فعل هذا وترك هذا فإن الإنسان قبل أن يشهد هذا التوحيد يرى للخلق فعلا يتفرق به قلبه في شهود أفعال المخلوقات؛ ويكون متبعاً لهواه فيما يريد فإذا أراد الحق خرج بإرادته عن إرادة الهوى والطبع ثم يشهد أنه خالق كل شيء فخرج بشهود هذا الجمع عن ذلك الفرق فلما اتفقوا على هذا ذكر لهم الجنيد بن محمد " الفرق الثاني " وهو بعد هذا الجمع وهو الفرق الشرعي. ألا ترى أنك تريد ما أمرت به ولا تريد ما نهيت عنه وتشهد أن الله هو يستحق العبادة دون ما سواه وأن عبادته هي بطاعة رسله فتفرق بين المأمور والمحذور وبين أوليائه وأعدائه، وتشهد توحيد الألوهية؟

فنازعه في هذا الفرق منهم من أنكره. و(منهم من لم يفهمه. ومنهم من ادعى أن المتكلم فيه لم يصل إليه. ثم إنك تجد كثيراً من الشيوخ إنما ينتهي إلى ذلك الجمع وهو توحيد الربوبية والفناء فيه. كما في كلام صاحب منازل السائرين مع جلالته قدره مع أنه قطعاً كان قائماً بالأمر والنهي المعروفين.

لكن قد يدعون أن هذا لأجل العامة. ومنهم من يتناقض. ومنهم من يقول: الوقوف مع الأمر لأجل مصلحة العامة وقد يعبر عنهم بأهل المارستان.

ومنهم من يسمي ذلك مقام التلبيس.

ومنهم من يقول: إنما التكليف على الإنسان مادام عبداً، فإذا ترقى من منزلة العبودية [إلى منزلة] الحرية سقط عنه التكليف، فلا يبقى عليه تكليف، لأن الحر لا تكليف عليه لأحد.

و منهم من يقول: التحقيق أن يكون الجمع في قلبك مشهوداً والفرق على لسانك موجوداً، فيشهد بقلبه استواء الأمور والمحظور مع تفريقه بلسانه بينهما.

و منهم من يرى أن هذه هي الحقيقة التي هي منتهى سلوك العارفين وغاية منازل الأولياء الصديقين.

و منهم من يظن أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهي يكون في السلوك والبداية وأما في النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر (وهو في الحقيقة قول بسقوط العبادة

والطاعة؛ فإن العبادة لله والطاعة له ولرسوله إنما تكون في امتثال الأمر الشرعي لا في الجري مع المقدور وإن كان كفراً وفسوقاً وعصيانياً.

ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفجار وخفرائهم حيث شهدوا القدر معهم؛ ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين. ومن هؤلاء من يقول: من شهد القدر سقط عنه الملام. ويقول: إن الخضر إنما سقط عنه الملام لما شهد القدر.

وأصحاب شهود القدر قد يؤتى أحدهم ملكاً من جهة خرق العادة بالكشف والتصرف فيظن ذلك كمالاً في الولاية؛ وتكون تلك الخوارق إنما حصلت بأسباب شيطانية وأهواء نفسانية؛ وإنما الكمال في الولاية أن يستعمل خرق العادات في إقامة الأمر والنهي الشرعيين مع حصولهما بفعل الأمور وترك المحظور فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية فهي مذمومة وإن حصلت بالأسباب

الشرعية لكن استعملت ليتوصل بها إلى محرم كانت مذمومة وإن توصل بها إلى مباح لا يستعان بها على طاعة كانت للأبرار دون المقربين وأما إن حصلت بالسبب الشرعي واستعين بها على فعل الأمر الشرعي: فهذه خوارق المقربين السابقين.

فلا بد أن ينظر في الخوارق في أسبابها وغاياتها: من أين حصلت وإلى ماذا أوصلت - كما ينظر في الأموال في مستخرجها ومصروفها - ومن استعملها - أعني الخوارق - في إرادته الطبيعية كان مذموماً.

ومن كان خالياً عن الإرادتين الطبيعية والشرعية فهذا حسبه أن يعفى عنه لكونه لم يعرف الإرادة الشرعية. وأما إن عرفها وأعرض عنها فإنه يكون مذموماً مستحقاً للعقاب إن لم يعف عنه وهو يمدح بكون إرادته ليست بهواه؛ لكن يجب مع ذلك أن تكون موافقة لأمر الله ورسوله لا يكفيه أن تكون لا من هذا ولا من هذا مع أنه لا يمكن خلوه عن الإرادة مطلقاً بل لا بد له من إرادة فإن لم يرد ما يحبه الله ورسوله أراد ما لا يحبه الله ورسوله؛ لكن إذا جاهد نفسه على ترك ما يهواه بقي مريداً لما يظن أنه مأمور به فيكون ضالاً.

فإن هذا يشبه حال الضالين من النصارى. وقد قال تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم } { صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } وقد قال النبي { اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون }.

فاليهود لهم إرادات فاسدة منهي عنها كما أخبر عنهم: بأنهم عصوا وكانوا يعتدون. وهم يعرفون الحق ولا يعملون به فلهم علم لكن ليس لهم عمل بالعلم وهم في الإرادة المذمومة المحرمة يتبعون

أهواءهم ليسوا في الإرادة المحمودة المأمور بها وهي إرادة ما يحبه الله ورسوله.

والنصارى لهم قصد وعبادة وزهد لكنهم ضلال يعملون بغير علم فلا يعرفون الإرادة التي يحبها الله ورسوله بل غاية أحدهم تجريد نفسه عن الإرادات فلا يبقى مريدا لما أمر الله به ورسوله كما لا يريد كثيرا مما نهى الله عنه ورسوله.

وهؤلاء ضالون عن مقصودهم فإن مقصودهم إنما هو في طاعة الله ورسوله ولهذا كانوا ملعونين: أي بعيدين عن الرحمة التي تنال بطاعة الله عز وجل.

والعالم الفاجر " يشبه اليهود. والعابد الجاهل يشبه النصارى. ومن أهل العلم من فيه شيء من الأول ومن أهل العبادة من فيه شيء من الثاني. وهذا الموضع تفرق فيه بنو آدم وتباينوا تباينا عظيما لا يحيط به إلا الله. ففيهم من لم يخلق الله خلقا أكرم عليه منه وهو خير البرية. ومنهم من هو شر البرية.

وأفضل الأحوال فيه حال الخليلين: إبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - ومحمد سيد ولد آدم وأفضل الأولين والآخرين، وخاتم النبيين وإمامهم إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا وهو المعروج به إلى ما فوق الأنبياء كلهم - إبراهيم وموسى وغيرهما.

وأفضل الأنبياء بعده إبراهيم كما ثبت في الصحيح عن أنس عن النبي { أن إبراهيم خير البرية }.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي أنه كان يقول في خطبة يوم الجمعة: { خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى محمد }. وكذلك كان عبد الله بن مسعود يخطب بذلك يوم الخميس كما رواه البخاري في صحيحه.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: { ما ضرب رسول الله خادماً له ولا امرأة ولا دابة ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله }.

وقال أنس: خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لي: أف قط وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته؟ وكان بعض أهله إذا عتبنى على شيء قال: دعوه فلو قضي شيء لكان }.

ورسول الله هو أفضل الخلائق وسيد ولد آدم وله الوسيلة في المقامات كلها ولم يكن حاله أنه لا يريد شيئاً ولا أنه يريد كل واقع كما أنه لم يكن حاله أنه يتبع الهوى بل هو منزّه عن هذا وهذا.

قال تعالى: { وما ينطق عن الهوى } { إن هو إلا وحي يوحى }،

وقال تعالى: { وأنه لما قام عبد الله يدعوه } وقال: { وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا } وقال: { سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً } . والمراد بعبده عابده المطيع لأمره؛ وإلا فجميع المخلوقين عباد بمعنى أنهم معبدون مخلوقون مدبرون.

وقد قال الله تعالى لنبيه: { واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } قال الحسن البصري لم يجعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت.

وقد قال الله تعالى له: { وإنك لعلى خلق عظيم } قال ابن عباس ومن وافقه كابن عيينة وأحمد بن حنبل: على دين عظيم. والدين فعل ما أمر به.

وقالت عائشة: { كان خلقه القرآن } رواه مسلم. وقد أخبرت أنه لم يكن يعاقب لنفسه ولا ينتقم لنفسه لكن يعاقب الله وينتقم لله وكذلك أخبر أنس أنه كان يعفو عن حظوظه.

وأما حدود الله فقد قال: { والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها } أخرجاه في الصحيحين.

وهذا هو كمال الإرادة؛ فإنه أراد ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان والعمل الصالح وأمر بذلك وكره ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان ونهى عن ذلك كما وصفه الله تعالى بقوله: { ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون } { الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون }.

وأما لحظ نفسه فلم يكن يعاقب ولا ينتقم بل يستوفي حق ربه، ويعفو عن حظ نفسه وفي حظ نفسه ينظر إلى القدر. فيقول: { لو قضي شيء لكان } وفي حق الله يقوم بالأمر فيفعل ما أمر الله به ويجاهد في سبيل الله أكمل الجهاد الممكن فجاهدهم أولا بلسانه بالقرآن الذي أنزل عليه.

كما قال تعالى: { ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا } { فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا } . ثم لما هاجر إلى المدينة وأذن له في القتال جاهدهم بيده.

وهذا مطابق لما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة وهو معروف أيضا من حديث عمر بن الخطاب عن النبي في حديث

احتجاج آدم وموسى، لما لام موسى آدم لكونه أخرج نفسه وذريته من الجنة بالذنب الذي فعله فأجابه آدم بأن هذا كان مكتوبا علي قبل أن أخلق بمدة طويلة قال النبي " { فحج آدم موسى } " .

وذلك لأن ملام موسى لآدم لم يكن لحق الله وإنما كان لما لحقه وغيره من الأدميين من المصيبة بسبب ذلك الفعل فذكر له آدم أن هذا كان أمرا مقدر لا بد من كونه والمصائب التي تصيب العباد يؤمرون فيها بالصبر؛ فإن هذا هو الذي ينفعهم. وأما لومهم لمن كان سببا فيها فلا فائدة لهم في ذلك وكذلك ما فاتهم من الأمور التي تنفعهم يؤمرون في ذلك بالنظر إلى القدر وأما التأسف والحزن فلا فائدة فيه فما جرى به القدر من فوت منفعة لهم أو حصول مضرة لهم فلينظروا في ذلك إلى القدر وأما ما كان بسبب أعمالهم فليجتهدوا في التوبة من الماضي والإصلاح في المستقبل. فإن هذا الأمر ينفعهم وهو مقدور لهم بمعونة الله لهم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي أنه قال: { المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان } .

أمر النبي بحرص العبد على ما ينفعه والاستعانة بالله ونهاه عن العجز وأنفع ما للعبد طاعة الله ورسوله وهي عبادة الله تعالى. وهذان الأصلان هما حقيقة قوله تعالى { إياك نعبد وإياك نستعين } ونهاه عن العجز وهو الإضاعة والتفريط والتواني. كما قال في الحديث الآخر: " { الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى } " رواه الترمذي.

وفي سنن أبي داود: { أن رجلين تحاكما إلى النبي فقضى على أحدهما. فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل فقال النبي إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل { فالكيس ضد العجز. وفي الحديث: { كل شيء بقدر حتى العجز والكيس { رواه مسلم.

وليس المراد بالعجز في كلام النبي ما يضاد القدرة؛ فإن من لا قدرة له بحال لا يلام ولا يؤمر بما لا يقدر عليه بحال. ثم لما أمره بالاجتهاد والاستعانة بالله ونهاه عن العجز أمره إذا غلبه أمر أن ينظر إلى القدر، ويقول: قدر الله وما شاء فعل ولا يتحسر ويتلهف ويحزن. ويقول: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا فإن لو تفتح عمل الشيطان.

وقد قال بعض الناس في هذا المعنى: الأمر أمران: أمر فيه حيلة وأمر لا حيلة فيه. فما فيه حيلة لا تعجز عنه وما لا حيلة فيه لا تجزع منه. وهذا هو الذي يذكره أئمة الدين. كما ذكر (الشيخ عبد القادر وغيره. فإنه لا بد من فعل المأمور وترك المحذور والرضا أو الصبر على المقدور.

وقد قال تعالى حكاية عن يوسف: { أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين { فالتقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور. والصبر يتضمن الصبر على المقدور.

وقد قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً { - إلى قوله - { وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً {

فبين سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين.

وقال تعالى: { بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين } فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة. وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم.

وقال تعالى: { لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور } فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين، وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بالسنتهم وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة المؤذنين بالسنتهم والمؤذنين بأيديهم وشر العدو المبطن للعداوة. وهم المنافقون.

وهذا الذي كان خلق النبي وهدية هو أكمل الأمور. فأما من أراد ما يحبه الله تارة وما لا يحبه تارة أو لم يرد لا هذا ولا هذا فكلاهما دون خلق رسول الله وإن لم يكن على واحد منهما إثم كالذي يريد ما أبيع له من نيل الشهوة المباحة والغضب والانتقام المباح كما هو خلق بعض الأنبياء والصالحين فهو وإن كان جائزا لا إثم فيه فخلق رسول الله أكمل منه.

وكذلك من لم يرد الشهوات المباحة وإن كان يستعان بها على أمر مستحب ولم يرد أن يغضب وينتقم ويجاهد إذا جاز العفو وإن كان الانتقام لله أَرْضَى اللهُ. كما هو أيضا خلق بعض الأنبياء والصالحين فهذا وإن كان جائزا لا إثم فيه فخلق رسول الله أكمل منه.

وهذا والذي قبله إذا كان شريعة لنبي فلا عيب على نبي فيما شرع الله له. لكن قد فضل الله بعض النبيين على بعض، وفضل بعض الرسل على بعض.

والشريعة التي بعث بها محمد أفضل الشرائع؛ إذ كان محمد أفضل الأنبياء والمرسلين وأمة خير أمة أخرجت للناس.

قال أبو هريرة في قوله تعالى { كنتم خير أمة أخرجت للناس } كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس فهم خير الأمم للخلق.

والخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وأما غير الأنبياء فمنهم من يكون ذلك شرعة لاتباعه لذلك النبي وأما من كان من أهل شريعة محمد ومنهاجه فإن كان ما تركه واجبا عليه وما فعله محرما عليه كان مستحقا للذم والعقاب إلا أن يكون متأولا مخطئا فالله قد وضع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان، وذنوب أحدهم قد يعفو الله عنه بأسباب متعددة.

ومن أسباب هذا الانحراف أن من الناس من تغلب عليه طريقة الزهد في إرادة نفسه فيزهد في موجب الشهوة والغضب كما يفعل ذلك من يفعله من عباد المشركين وأهل الكتاب كالرهبان وأشباههم وهؤلاء يرون الجهاد نقصا لما فيه من قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال ويرون أن الله لم يجعل عمارة بيت المقدس على يد داود لأنه جرى على يديه سفك الدماء. ومنهم من لا يرى ذبح شيء من الحيوان كما عليه البراهمة ومنهم من لا يحرم ذلك لكنه هو يتقرب إلى الله بأنه لا يذبح حيوانا ولا يأكل لحمه بل ولا ينكح النساء ويقول في مبادئه: فلان ما نكح ولا ذبح.

وقد أنكر النبي على هؤلاء كما في الصحيحين عن أنس: { أن نفرا من أصحاب النبي سألوا أزواج النبي عن عمله في السر فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي فحمد الله وأثنى عليه وقال: ما بال أقوام قالوا: كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء وأكل اللحم فمن رغب عن سنتي فليس مني }.

وقد قال تعالى: { يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين } نزلت في عثمان بن مظعون وطائفة معه كانوا قد عزموا على التبتل ونوع من الترهيب.

وفي الصحيحين { عن سعد قال رد رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا }.

و الزهد النافع المشروع الذي يحبه الله ورسوله هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة فأما ما ينفع في الآخرة وما يستعان به على ذلك فالزهد فيه زهد في نوع من عبادة الله وطاعته والزهد إنما يراد لأنه زهد فيما يضر أو زهد فيما لا ينفع فأما الزهد في النافع فجهل وضلال كما قال النبي " { احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز } ".

والنافع للعبد هو عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله وكلما صده عن ذلك فإنه ضار لا نافع ثم الأنفع له أن تكون كل أعماله عبادة لله وطاعة له وإن أدى الفرائض وفعل مباحا لا يعينه على الطاعة فقد فعل ما ينفعه وما لا ينفعه ولا يضره.

وكذلك الورع المشروع هو الورع عما قد تخاف عاقبته وهو ما يعلم تحريمه وما يشك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله - مثل فعل محرم يتعين - مثل من يترك أخذ الشبهة ورعا مع

حاجته إليها ويأخذ بدل ذلك محرماً بينا تحريمه أو يترك واجبا تركه أعظم فساداً من فعله مع الشبهة كمن يكون على أبيه أو عليه ديون هو مطالب بها وليس له وفاء إلا من مال فيه شبهة فيتورع عنها ويدع ذمته أو ذمة أبيه مرتهة.

وكذلك من الورع الاحتياط بفعل ما يشك في وجوبه لكن على هذا الوجه. وتامم الورع أن يعم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات. ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور ويرى ذلك من الورع ويمتنع عن قبول شهادة الصادق وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع.

وكذلك الزهد والرغبة من لم يراع ما يحبه الله ورسوله من الرغبة والزهد وما يكرهه من ذلك؛ وإلا فقد يدع واجبات ويفعل محرمات مثل من يدع ما يحتاج إليه من الأكل أو أكل الدسم حتى يفسد عقله أو تضعف قوته عما يجب عليه من حقوق الله تعالى وحقوق عباده أو يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لما في فعل ذلك من أذى بعض الناس والانتقام منهم حتى يستولي الكفار والفجار على الصالحين الأبرار فلا ينظر المصلحة الراجحة في ذلك.

وقد قال تعالى: { يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل }. يقول سبحانه وتعالى: وإن

كان قتل النفوس فيه شر فالفتنة الحاصلة بالكفر، وظهور أهله أعظم من ذلك فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما.

وكذلك الذي يدع ذبح الحيوان أو يرى أن في ذبحه ظلما له هو جاهل فإن هذا الحيوان لا بد أن يموت فإذا قتل لمنفعة الأدميين وحاجتهم كان خيرا من أن يموت موتا لا ينتفع به أحد والآدمي أكمل منه ولا تتم مصلحته إلا باستعمال الحيوان في الأكل والركوب ونحو ذلك؛ لكن ما لا يحتاج إليه من تعذيبه نهى الله عنه كصبر البهائم وذبحها في غير الحلق واللبة مع القدرة على ذلك وأوجب الله الإحسان بحسب الإمكان فيما أباحه من القتل والذبح. كما في صحيح مسلم عن شداد بن أوس عن النبي أنه قال: { إن الله كتب الإحسان على كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته }.

وهؤلاء الذين زهدوا في الإرادات حتى فيما يحبه الله ورسوله من الإرادات بإزائهم طائفتان: (طائفة رغبوا فيما كره الله ورسوله والرغبة فيه من الكفر والفسوق والعصيان). و (طائفة رغبوا فيما أمر الله ورسوله لكن لهوى أنفسهم لا لعبادة الله تعالى) وهؤلاء الذين يأتون بصور الطاعات مع فساد النيات كما في الصحيحين عن النبي " { أنه قيل له: يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء فأبي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله }.

قال الله تعالى: { إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا } وهؤلاء أهل إرادات فاسدة مذمومة فهم مع تركهم الواجب فعلوا المحرم. وهم يشبهون اليهود كما يشبه أولئك النصارى.

قال تعالى: { ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون }.

وقال تعالى: { سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا }.

وقال تعالى: { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين } { ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون }.

فهؤلاء يتبعون أهواءهم غيا مع العلم بالحق وأولئك يتبعون أهواءهم مع الضلال والجهل بالحق. كما قال تعالى: { ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل } وكلا الطائفتين تاركة ما أمر الله ورسوله به من الإرادات والأعمال الصالحة مرتكبة لما نهى الله ورسوله عنه من الإرادات والأعمال الفاسدة.

[عدل] فصل

فأمر الشيخ عبد القادر وشيخه حماد الدباس وغيرهما من المشايخ أهل الاستقامة - رضي الله عنهم - : بأنه لا يريد السالك مرادا قط وأنه لا يريد مع إرادة الله عز وجل سواها بل يجري فعله فيه فيكون هو مراد الحق. إنما قصدوا به فيما لم يعلم العبد أمر الله ورسوله فيه فأما ما علم أن الله أمر به فعليه أن يريده ويعمل به وقد صرحوا

بذلك في غير موضع. وإن كان غيرهم من الغالطين يرى القيام بالإرادة الخلقية هو الكمال وهو " الفناء في توحيد الربوبية " وأن السلوك إذا انتهى إلى هذا الحد فصاحبه إذا قام بالأمر فلأجل غيره أو أنه لا يحتاج أن يقوم بالأمر فتلك أقوال وطرائق فاسدة قد تكلم عليها في غير هذا الموضع.

فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف: مثل الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والسري السقطي والجنيد بن محمد وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين. فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين بل عليه أن يفعل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف.

[عدل] تابع كلام الجيلاني

وهذا كثير في كلامهم: كقول الشيخ عبد القادر في كتاب فتوح الغيب: " اخرج من نفسك وتنج عنها وانعزل عن ملكك. وسلم الكل إلى الله - تبارك وتعالى - وكن بوابه على باب قلبك، وامتل أمره - تبارك وتعالى - في إدخال من يأمرك بإدخاله وانته نهييه في صد من يأمرك بصدده. فلا تدخل الهوى قلبك بعد أن خرج منه فأخراج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعتة في الأحوال كلها وإدخاله في القلب بمتابعتة وموافقته فلا ترد إرادة غير إرادته - تبارك وتعالى - وغير ذلك منك تمن وهو وادي الحمقى وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه - تبارك وتعالى - وحجابك عنه.

احفظ أبدا أمره وانته أبدا نهييه وسلم إليه أبدا مقدوره ولا تشركه بشيء من خلقه فأرادتك وهواك وشهواتك كلها خلقه فلا ترد ولا

تهو ولا تشته كيلا تكون مشركا. قال الله تعالى: { فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا } ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب؛ بل هو أيضا متابعتك لهواك وأن تختار مع ربك شيئا سواه من الدنيا وما فيها والآخرة وما فيها فما سواه - تبارك وتعالى - غيره فإذا ركنت إلى غيره فقد أشركت به عز وجل غيره فاحذر ولا تركزن وخف ولا تأمن وفتش ولا تغفل فتطمئن ولا تضيف إلى نفسك حالا ولا مقاما ولا تدع شيئا من ذلك ."

وقال الشيخ عبد القادر أيضا: " إنما هو الله ونفسك وأنت المخاطب والنفس ضد الله وعدوته؛ والأشياء كلها تابعة لله فإذا وافقت الحق في مخالفة النفس وعداوتها فكنت خصما له على نفسك ."

إلى أن قال: " فالعبادة في مخالفتك نفسك وهواك قال تعالى: { ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله } ."

إلى أن قال: " والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي - رحمه الله - لما رأى رب العزة في المنام فقال له: كيف الطريق إليك يا بارخذاه؟ فقال: اترك نفسك وتعال قال أبو يزيد: فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها. فإذا ثبت أن الخير كله في معاداتها في الجملة في الأحوال كلها فإن كنت في حال التقوى فخالف النفس بأن تخرج من حرام الخلق وشبههم ومنهم والاتكال عليهم والثقة بهم والخوف منهم؛ والرجاء لهم والطمع فيما عندهم من حطام الدنيا فلا ترج عطاءهم على طريق الهدية أو الزكاة أو الصدقة أو الكفارة أو النذر فاقطع همك منهم من سائر الوجوه والأسباب فاخرج من الخلق جدا واجعلهم كالباب يرد ويفتح وكالشجرة يوجد فيها ثمرة تارة ونخيل أخرى كل ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبر، وهو الله تبارك وتعالى. فإذا اصح لك هذا كنت موحدا له - تبارك وتعالى - ولا تنس مع ذلك كسبهم لتتخلص من مذهب الجبرية وأعتقد أن الأفعال

لا تتم لهم دون الله - تبارك وتعالى - لكيلا تعبدتهم وتنسى الله تعالى ولا تقل فعلهم دون الله فتكفر وتكون قدريا. لكن قل: هي لله خلقا وللعباد كسبا. كما جاءت به الآثار لبيان موضع الجزاء من الثواب والعقاب، وامتلأ أمر الله فيهم وخلص قسمك منهم بأمره ولا تجاوزه فحكمه قائم يحكم عليك وعليهم فلا تكن أنت الحاكم وكونك معهم قدر والقدر ظلمة فادخل في الظلمة بالمصباح وهو " الحكم ": كتاب الله وسنة رسوله لا تخرج عنهما.

فإن خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضهما على الكتاب والسنة فإن وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أن تلهم بالزنا أو الربا أو مخالطة أهل الفسوق والفجور وغير ذلك من المعاصي فادفعه عنك واهجره ولا تقبله ولا تعمل به واقطع بأنه من الشيطان اللعين وإن وجدت فيهما إباحته كالشهوات المباحة من الأكل والشرب واللبس والنكاح فاهجره أيضا ولا تقبله واعلم أنه من إلهام النفس وشهواتها وقد أمرت بمخالفتها وعداوتها " .

قلت: ومراده بهجر المباح إذا لم يكن مأمورا به كما قد بين مراده في غير هذا الموضع. فإن المباح المأمور به إذا فعله بحكم الأمر كان ذلك من أعظم نعم الله عليه وكان واجبا عليه وقد قدمت أنه يدعو إلى طريقة السابقين المقربين؛ لا يقف عند طريقة الأبرار أصحاب اليمين.

قال: " وإن لم تجد في الكتاب والسنة تحريمه ولا إباحته بل هو أمر لا تعقله مثل أن يقال لك أنت موضع كذا وكذا الق فلانا الصالح؛ ولا حاجة لك هناك ولا في الصالح؛ لاستغنائك عنه بما أولاك الله تعالى من نعمه من العلم والمعرفة فتوقف في ذلك ولا تبادر إليه. فتقول: هل هذا إلهام إلا من الحق فاعمل به؟ بل انتظر الخير في ذلك وفعل الحق بأن يتكرر ذلك الإلهام، وتؤمر بالسعي أو علامة

تظهر لأهل العلم بالله تبارك وتعالى يعقلها العقلاء من أولياء الله
والمؤيدون من الأبدال.

وإنما لم تبادر إلى ذلك لأنك لا تعلم عاقبته وما يؤول الأمر إليه
وربما كان فيه فتنة وهلاك ومكر من الله وامتحان فاصبر حتى
يكون هو عز وجل الفاعل فيك فإذا تجرد الفعل وحملت إلى هناك
واستقباتك فتنة كنت محمولا محفوظا منها؛ لأن الله تعالى لا يعاقبك
على فعله وإنما تتطرق العقوبة نحوك لكونك في الشيء ."

[عدل] تعليق ابن تيمية

قلت: فقد أمر - رحمه الله - بأن ما كان محظورا في الشرع يجب
تركه ولا بد وما كان معلوما أنه مباح بعينه لكونه يفعل بحكم الهوى
لا بأمر الشارع فيترك أيضا وأما ما لم يعلم هل هو بعينه مباح لا
مضرة فيه أو فيه مضرة مثل السفر إلى مكان معين أو شخص
معين والذهاب إلى مكان معين أو شخص معين فإن جنس هذا
العمل ليس محرما ولا كل أفراده مباحة؛ بل يحرم على الإنسان أن
يذهب إلى حيث يحصل له ضرر في دينه فأمره بالكف عن الذهاب
حتى يقهر أو يتبين له في الباطن أن هذا مصلحة؛ لأنه إذا لم يتبين
له أن الذهاب واجب أو مستحب لم ينبغ له فعله وإذا خاف الضرر
انبغى له تركه فإذا أكره على الذهاب لم يكن عليه حرج فلا يؤخذ
بالفعل. بخلاف ما إذا فعله باختياره وشهوته؛ وإذا تبين له أنه
مصلحة راجحة كان حسنا.

وقد جاءت شواهد السنة: بأن من ابتلي بغير تعرض منه أعين،
ومن تعرض للبلاء خيف عليه. مثل قوله لعبد الرحمن بن سمرة "
{ لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن
أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها } ."

ومنه قوله: { لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا }.

وفي السنن { من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يسأل القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده } - وفي رواية - وإن أكره عليه.

وفي الصحيحين أنه قال في الطاعون: { إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه؛ وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه }.

ومنه أنه { نهى عن النذر }.

ومنه قوله: { ذروني ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه. وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم }.

[عدل] فصل: تابع كلام الجيلاني

قال الشيخ عبد القادر: " وإن كنت في حالة الحقيقة وهي حالة الولاية: فخالف هواك، واتبع الأمر في الجملة واتباع الأمر على قسمين: (أحدهما) : أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وتترك الحظ، وتؤدي الفرض وتشتغل بتترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن.

و القسم الثاني: ما كان بأمر باطن وهو أمر الحق تبارك وتعالى يأمر عبده وينهاه وإنما يتحقق هذا الأمر في المباح الذي ليس حكما في الشرع على معنى أنه ليس من قبيل النهي ولا من قبيل الأمر الواجب بل هو مهمل ترك العبد يتصرف فيه باختياره فسمي مباحا فلا يحدث العبد فيه شيئا من عنده بل ينتظر الأمر فيه فإذا أمر امتثل فتصير جميع حركاته وسكناته بالله تعالى ما في الشرع حكمه

فبالشرع وما ليس له حكم في الشرع فبالأمر الباطن فحينئذ يصير محققاً من أهل الحقيقة وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم. وإن كنت في حالة حق الحق وهي حالة المحو والفناء وهي حالة الأبدال المنكسري القلوب لأجل الحق، الموحدين العارفين أرباب العلوم والفعل، السادة الأمراء الشحن الخفراء للخلق، خلفاء الرحمن وأخلائه وأعيانه وأحابه عليهم السلام، فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك، بالتبري من الحول والقوة، وأن لا يكون لك إرادة وهمة في شيء ألبتة، دنيا وأخرى، عبد الملك لا عبد الملك، وعبد الأمر لا عبد الهوى، كالطفل مع الظئر، والميت الغسيل مع الغاسل، والمريض المغلوب على جنبه مع الطبيب فيما سوى الأمر والنهي.

وقال أيضاً: " اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حالة التقوى، التي هي القدم الأولى، واتبع الأمر في حالة الولاية وخمود وجود الهوى ولا تتجاوزها، وهي القدم الثانية، وارض بالفعل، ووافق، وافن في حالة البدلية والغوثية والقبطية والصديقية، وهي المنتهى.

تنح عن الطريق القدر خل عن سبيله رد نفسك وهواك كف لسانك عن الشكوى فإذا فعلت ذلك إن كان خيراً زادك المولى طيبة ولذة وسروراً، وإن كان شراً حفظك في طاعته فيه وأزال عنك الملامة وأفقدك فيه حتى يتجاوز ويرحل عند انقضاء أجله كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار، والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف.

ذلك أنموذج عندك فاعتبر به. ثم ذنوب وآثام وإجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطيات ولا يصلح لمجالسة الكريم إلا طاهر عن أنجاس الذنوب والزلات، ولا يقبل على سدة إلا طيب من دون الدعوى والهواشات كما لا يصلح لمجالسة الملوك إلا الطاهر من

الأنجاس وأنواع النتن والأوساخ فالبلايا مكفرات مطهرات. قال النبي { حمى يوم كفارة سنة } ."

[عدل] تعليق ابن تيمية

قلت: فقد بين الشيخ عبد القادر - رضي الله عنه - أن لزوم الأمر والنهي لا بد منه في كل مقام، وذكر الأحوال الثلاث التي جعلها: حال صاحب التقوى وحال الحقيقة، وحال حق الحق وقد فسر مقصوده بأنه لا بد للعبد في كل حال من أن يريد فعل ما أمر به في الشرع، وترك ما نهى عنه في الشرع وأنه إذا أمر العبد بترك إرادته فهو فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه وهذا حق. فإنه لم يؤمر به فتكون له إرادة في وجوده ولا نهى عنه فتكون له إرادة في عدمه فيخلو في مثل هذا عن إرادة النقيضين.

وقد بين أن صاحب الحقيقة عليه أن يلزم الأمر دائما الأمر الشرعي الظاهر إن عرفه أو الأمر الباطن، وبين أن الأمر الباطن إنما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا محرم وأن مثل هذا ينتظر فيه الأمر الخاص حتى يفعله بحكم الأمر.

فإن قلت: فما الفرق بين هذا وبين صاحب التقوى الذي قبله؟
وصاحب الحق الذي بعده؟

قيل: أما الذي بعده الذين سماهم الأبدال فهم الذين لا يفعلون إلا بأمر الحق، ولا يفعلون إلا به فلا يشهدون لأنفسهم فعلا فيما فعلوه من الطاعة؛ بل يشهدون أنه هو الفاعل بهم ما قام بهم من طاعة أمره. ولهذا قال: " فاتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبري من الحول والقوة ".

فهؤلاء يشهدون توحيد الربوبية مع توحيد الإلهية فيشهدون أن الله هو الذي خلق ما قام بهم من أفعال البر والخير فلا يرون لأنفسهم

حمدا ولا منة على أحد، ويرون أن الله خالق أفعال العباد فلا يرون
أحدا مسيئا إليهم ولا يرون لهم حقا على أحد إذ قد شهدوا أن الله
خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها وهم يعلمون أن العباد لا
يستحقون من أنفسهم ولا بأنفسهم على الله شيئا بل هو الذي كتب
على نفسه الرحمة.

ويشهدون أنه يستحق أن يعبد لا يشرك به شيء، وأنه يستحق أن
يتقى حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى،
ويشكر فلا يكفر فيرون أن ما قام بهم من العمل الصالح فهو بفضل
وجوده وكرمه له الحمد في ذلك.

ويشهدون أنه لا حول ولا قوة إلا بالله. وأما ما قام بالعباد من أذاهم
فالله خالقه وهو من عدله، وما تركه الناس من حقوقهم التي
يستحقونها على الناس فهو الذي لم يخلقه وله الحمد على كل حال
على ما فعل وما لم يفعل.

ولهذا كانوا منكسرة قلوبهم؛ لشهودهم وجوده الكامل، وعدمهم
المحض، ولا أعظم انكسارا ممن لم ير لنفسه إلا العدم لا يرى له
شيئا ولا يرى به شيئا.

وصاحب الحقيقة الذي هو دون هذا قد شاركه في إخلاص الدين لله
وأنه لا يفعل إلا ما أمر به فلا يفعل إلا لله لكن قصر عنه في شهود
توحيد الربوبية ورؤيته وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وأنه ليس له
في الحقيقة شيء. بل الرب هو الخالق الفاعل لكل ما قام به وأن
كمال هذا الشهود لا يبقي شيئا من العجب ولا الكبر ونحو ذلك.

فكلاهما قائم بالأمر مطيع لله لكن هذا يشهد أن الله هو الذي جعله
مسلمًا مصليا وأنه في الحقيقة لم يحدث شيئا، وذاك وإن كان يؤمن

بهذا ويصدق به إذ كان مقرا بأن الله خالق أفعال العباد؛ لكن قد لا يشهده شهودا يجعله فيه بمنزلة المعدوم.

وأیضا بينهما فرق من جهة ثانية: وهي أن الأول تكون له إرادة وهمة في أمور فيتركها فهو يميز في مراداته بين ما يؤمر به وما ينهى عنه وما لا يؤمر به ولا ينهى عنه؛ ولهذا لم يبق له مراد أصلا إلا ما أَراده الرب إما أمرا به فيمثله هو بالله وإما فعلا فيه فيفعله الله به ولهذا شبهه بالطفل مع الظئر في غير الأمر والنهي.

وأما الأول: الذي هو في مقام التقوى العامة فإن له شهوات للمحرمات وله التفات إلى الخلق وله رؤية نفسه فيحتاج إلى المجاهدة بالتقوى بأن يكف عن المحرمات وعن تناول الشهوات بغير الأمر فهذا يحتاج أن يميز بين ما يفعله وما لا يفعله وهو التقوى.

وصاحب الحقيقة لم يبق له ما يفعله إلا ما يؤمر به فقط فلا يفعل إلا ما أمر به في الشرع وما كان مباحا لم يفعل إلا ما أمر به باطنا.

وأما الثالث: فقد تم شهوده في أنه لا يفعل إلا الله وبالله. فلا يفعل إلا ما أمر الله به الله ويشهد أن الله هو الذي فعل ذلك في الحقيقة ولا تكون له همة إرادة أن يفعل لنفسه ولا لغير الله ولا يفعل بنفسه ولا بغير الله.

والثلاثة مشتركون في الطريق في أن كلا منهم لا يفعل إلا الطاعة لكن يتفاوتون بكمال المعرفة والشهادة وبصفاء النية والإرادة. والله أعلم.

فإن قيل: كلام الشيخ كله يدور على أنه يتبع الأمر مهما أمكن معرفته باطنا وظاهرا وما ليس فيه أمر باطن ولا ظاهر يكون فيه مسلما لفعل الرب بحيث لا يكون له اختيار لا في هذا ولا في هذا بل

إن عرف الأمر كان معه وإن لم يعرفه كان مع القدر فهو مع أمر الرب إن عرف وإلا فمع خلقه،

فإنه سبحانه له الخلق والأمر وهذا يقتضي أن من الحوادث ما ليس فيه أمر ولا نهى فلا يكون لله فيه حكم لا باستحباب ولا كراهة.

وقد صرح بذلك هو والشيخ حماد الدباس، وإن السالك يصل إلى أمور لا يكون فيها حكم شرعي بأمر ولا نهى بل يقف العبد مع القدر.

وهذا الموضع هو الذي يكون السالك فيه عندهم مع " الحقيقة القدرية " المحضة إذ ليس هنا حقيقة شرعية.

وهذا مما يمتاز بهم فيه أهل العلم بالشرعية. ويقولون: إن " الفعل " إما أن يكون بالنسبة إلى الشرع وجوده راجحاً على عدمه وهو الواجب والمستحب. وإما أن يكون عدمه راجحاً على وجوده. وهو المحرم والمكروه. وإما أن يستوي الأمران وهو المباح. وهذا التقسيم بحسب الأمر المطلق.

ثم الفعل المعين الذي يقال هو مباح إما أن تكون مصلحته راجحة للعبد لاستعانتة به على طاعة ولحسن نيته فهذا يصير أيضاً محبوباً راجح الوجود بهذا الاعتبار وإما أن يكون مفوتاً للعبد ما هو أفضل له كالمباح الذي يشغله عن مستحب فهذا عدمه خير له.

والسالك المتقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض لا يكون المباح المعين في حقه مستوي الطرفين فإنه إذا لم يستعن به على طاعة كان تركه وفعل طاعة مكانه خيراً له وإنما قدر وجوده وعدمه سواء إذا كان مع عدمه يشغل بمباح مثله.

فيقال: لا فرق بين هذا وهذا، فهذا يصلح للأبرار أهل اليمين الذين يتقربون إلى الله بالفرائض: أداء الواجبات وترك المحرمات، ويشتغلون مع ذلك بمباحات. فهؤلاء قد يكون المباح المعين يستوي وجوده وعدمه في حقهم إذا كانوا عند عدمه يشتغلون بمباح آخر ولا سبيل إلى أن تترك النفس فعلا إن لم تشتغل بفعل آخر يضاد الأول؛ إذ لا تكون معطلة عن جميع الحركات والسكنات.

ومن هنا أنكر الكعبي المباح في الشريعة لأن كل مباح فهو يشتغل به عن محرم، وترك المحرم واجب ولا يمكنه تركه إلا أن يشتغل بضده وهذا المباح ضده، والأمر بالشيء نهي عن ضده، والنهي عنه أمر بضده المعين إن لم يكن له إلا ضد واحد وإلا فهو أمر بأحد أزداده فأبي ضد تلبس به كان واجبا من باب الواجب المخير.

وسؤال الكعبي هذا أشكل على كثير من النظار فمنهم من اعترف بالعجز عن جوابه: كأبي الحسن الأمدي، وقواه طائفة بناء على أن النهي عن الشيء أمر بضده كأبي المعالي.

ومنهم من قال: هذا فيما كانت أزداده محصورة فأما ما ليست أزداده محصورة فلا يكون النهي عنه أمرا بأحدهما كما يفرق بين الواجب المطلق، والواجب المخير. فيقال في المخير: هو أمر بأحد الثلاثة ويقال في المطلق هو أمر بالقدر المشترك. وجددي أبو البركات يميل إلى هذا.

وقد ألزموا الكعبي إذا ترك الحرام بحرام آخر وهو قد يقول: عليه ترك المحرمات كلها إلى ما ليس بمحرم بل إما مباح وإما مستحب وإما واجب.

و تحقيق الأمر أن قولنا: الأمر بالشيء نهي عن ضده. وأزداده والنهي عنه أمر بضده أو بأحد أزداده من جنس قولنا: الأمر

بالشيء أمر بلوازمه وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والنهي عن الشيء نهي عما لا يتم اجتنابه إلا به. فإن وجود المأمور به يستلزم وجود لوازمه وانتفاء أضداده، بل وجود كل شيء هو كذلك يستلزم وجوده وانتفاء أضداده وعدم المنهي عنه؛ بل وعدم كل شيء يستلزم عدم ملزوماته وإذا كان لا يعدم إلا بضد يخلفه كالأكوان فلا بد عند عدمه من وجود بعض أضداده.

فهذا حق في نفسه؛ لكن هذه اللوازم جاءت من ضرورة الوجود وإن لم تكن مقصوده للأمر. والفرق ثابت بين ما يؤمر به قصدا ما يلزمه في الوجود.

فالأول هو الذي يذم ويعاقب على تركه بخلاف الثاني فإن من أمر بالحج أو الجمعة وكان مكانه بعيدا فعليه أن يسعى من المكان البعيد، والقريب يسعى من المكان القريب فقطع تلك المسافات من لوازم المأمور به ومع هذا فإذا ترك هذان الجمعة والحج لم تكن عقوبة البعيد أعظم من عقوبة القريب بل ذاك بالعكس أولى مع أن ثواب البعيد أعظم فلو كانت اللوازم مقصودة للأمر لكان يعاقب بتركها فكأن تكون عقوبة البعيد أعظم وهذا باطل قطعاً.

وهكذا إذا فعل المأمور به فإنه لا بد من ترك أضداده، لكن ترك الأضداد هو من لوازم فعل المأمور به ليس مقصودا للأمر بحيث إنه إذا ترك المأمور به عوقب على تركه لا على فعل الأضداد التي اشتغل بها وكذلك المنهي عنه مقصود الناهي عدمه؛ ليس مقصوده فعل شيء من أضداده وإذا تركه متلبسا بضد له كان ذلك من ضرورة الترك.

وعلى هذا إذا ترك حراما بحرام آخر فإنه يعاقب على الثاني ولا يقال فعل واجبا وهو ترك الأول؛ لأن المقصود عدم الأول، فالمباح الذي اشتغل به عن محرم لم يؤمر به ولا بأمثاله [كان] أمرا

مقصودا؛ لكن نهي عن الحرام ومن ضرورة ترك المنهي عنه الاشتغال بصد من أصداده فذاك يقع لازما لترك المنهي عنه فليس هو الواجب المحدود بقولنا الواجب ما يذم تاركه ويعاقب تاركه أو يكون تركه سببا للذم والعقاب.

فقولنا ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب أو يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب يتضمن إيجاب اللوازم. والفرق ثابت بين الواجب الأول والثاني. فإن الأول يذم تاركه ويعاقب، والثاني واجب وقوعا أي لا يحصل الأول إلا به ويؤمر به أمرا بالوسائل ويثاب عليه لكن العقوبة ليست على تركه.

ومن هذا الباب إذا اشتبهت الميتة بالمذكي فإن المحرم الذي يعاقب على فعله أحدهما بحيث إذا أكلهما جميعا لم يعاقب عقوبة من أكل ميتتين بل عقوبة من أكل ميتة واحدة، والأخرى وجب تركها وجوب الوسائل.

فقول من قال: كلاهما محرم صحيح بهذا الاعتبار؛ وقول من قال: المحرم في نفس الأمر أحدهما صحيح أيضا بذلك الاعتبار وهذا نظير قول من قال: يجب التوصل إلى الواجب بما ليس بواجب.

وإنكار أبي حامد الغزالي وأبي محمد المقدسي على من قال هذا ومن قال المحرم أحدهما لا يناسب طريقة الفقهاء، وحاصله يرجع إلى نزاع لفظي. فإن الوجوب والحرمة الثابتة لأحدهما ليست ثابتة للآخر بل هي نوع آخر حتى لو اشتبهت مملوكته بأجنبية بالليل ووطنها يعتقد حل وطء إحداها وتحريم وطء الأخرى كان ولده من مملوكته ثابتا نسبه بخلاف الأخرى ولو قدرنا أنه اشتبهت أخته بأجنبية وتزوج إحداها فحد مثلا ثم تزوج الأخرى لم يحد حدين مع أنه لا حد في ذلك لجواز أن تكون المنكوحة هي الأجنبية.

وبهذا تنحل شبهة الكعبي. فإن المحرم تركه مقصود، وأما الاشتغال بضد من أضداده فهو وسيلة.

فإذا قيل: المباح واجب بمعنى وجوب الوسائل أي قد يتوسل به إلى فعل واجب وترك محرم فهذا حق.

ثم إن هذا يعتبر فيه القصد؛ فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطنها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطنها أو يأكل طعاما حلالا ليشتغل به عن الطعام الحرام فهذا يثاب على هذه النية والفعل.

كما بين ذلك النبي بقوله: { وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله؛ أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أما كان عليه وزر؟ قالوا: بلى. قال: فلم تعتدون بالحرام ولا تعتدون بالحلال؟ }.

ومنه قوله { إن الله يحب أن تؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته } رواه أحمد وابن خزيمة في صحيحه.

وقد يقال: المباح يصير واجبا بهذا الاعتبار وإن تعين طريقا صار واجبا معينا وإلا كان واجبا مخيرا لكن مع هذا القصد وأما مع الذهول عن ذلك فلا يكون واجبا أصلا إلا وجوب الوسائل إلى الترك.

وترك المحرم لا يشترط فيه القصد. فكذاك ما يتوسل به إليه فإذا قيل هو مباح من جهة نفسه وأنه قد يجب وجوب المخيرات من جهة الوسيلة لم يمنع ذلك. فالنزاع في هذا الباب نزاع لفظي اعتباري. وإلا فالمعاني الصحيحة لا ينازع فيها من فهمها.

و المقصود هنا: أن الأبرار وأصحاب اليمين قد يشتغلون عن مباح بمباح آخر فيكون كل من المباحين يستوي وجوده وعدمه في حقهم. أما السابقون المقربون فهم إنما يستعملون المباحات إذا كانت طاعة لحسن القصد فيها؛ والاستعانة على طاعة الله. وحينئذ فمباحاتهم طاعات.

وإذا كان كذلك لم تكن الأفعال في حقهم إلا ما يترجح وجوده فيؤمرون به شرعاً أمر استحباب أو ما يترجح عدمه فالأفضل لهم ألا يفعلوه وإن لم يكن فيه إثم.

والشريعة قد بينت أحكام الأفعال كلها فهذا سؤال. وسؤال ثان وهو أنه إذا قدر أن من الأفعال ما ليس فيه أمر ولا نهي كما في حق الأبرار فهذا الفعل لا يحمده ولا يذمه ولا يحب ولا يبغض ولا ينظر فيه إلى وجود القدر وعدمه؛ بل إن فعلوه لم يحمدوا وإن لم يفعلوه لم يحمدوا، فلا يجعل مما يحمدون عليه أنهم يكونون في هذا الفعل كالميت بين يدي الغاسل مع كون هذا الفعل صدر باختيارهم وإرادتهم. إذ الكلام في ذلك.

وأما غير الأفعال الاختيارية: وهو ما فعل بالإنسان بغير اختياره، كما يحمل الإنسان وهو لا يستطيع الامتناع، فهذا خارج عن التكليف مع أن العبد مأمور في مثل هذا أن يحبه إن كان حسنة ويبغضه إن كان سيئة ويخلو عنهما إن لم يكن حسنة ولا سيئة، فمن جعل الإنسان فيما يستعمله فيه القدر من الأفعال الاختيارية - كالميت بين يدي الغاسل - فقد رفع الأمر والنهي عنه في الأفعال الاختيارية وهذا باطل.

وسؤال ثالث: وهو أن حقيقة هذا القول طي بساط الأمر والنهي عن العبد في هذه الأحوال مع كون أفعاله اختيارية، وهب أنه ليس له

هوى فليس كل ما لا هوى فيه يسقط عنه فيه الأمر والنهي بل عليه أن يحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله.

قيل: هذه الأسولة أسولة صحيحة.

وفصل الخطاب أن السالك قد يخفى عليه الأمر والنهي بحيث لا يدري هل ذلك الفعل مأمور به شرعا أو منهي عنه شرعا؛ فيبقى هواه لئلا يكون له هوى فيه ثم يسلم فيه للقدر، وهو فعل الرب لعدم معرفته برضا الرب وأمره وحبه في ذلك الفعل.

وهذا يعرض لكثير من أئمة العباد وأئمة العلماء فإنه قد تكون عندهم أفعال وأقوال لا يعرفون حكم الله الشرعي فيها بل قد تعارضت عندهم فيها الأدلة أو خفيت الأدلة بالكلية فيكونون معذورين لخفاء الشرع عليهم.

وحكم الشرع إنما يثبت في حق العبد إذا تمكن من معرفته فأما ما لم يبلغه ولم يتمكن من معرفته فلا يطالب به وإنما عليه أن يتقي الله ما استطاع. وهذا خطأ في العلم وليس خطأ في العمل وهو كالمجتهد المخطئ له أجر على قصده واجتهاده، وخطؤه مرفوع عنه.

فإن قيل: فإذا كان الأمر هكذا فالواجب على العبد أن يتوقف في مثل هذه الحال إذا لم يتبين له أن ذلك الفعل مأمور به أو منهي عنه وهو لا يريد أن يفعل شيئا لا مدح فيه ولا ذم فيقف لا يستسلم للقدر ويصير محلا لما يستعمل فيه من الأفعال اللهم إلا إذا فعل غيره فعلا فهو لا يمدحه ولا يذمه ولا يرضاه ولا يسخطه؛ إذا لم يتبين له حكمه.

فأما كونه هو من أفعاله الاختيارية يصير مستسلما لما يستعمله القدر فيه: كالطفل مع الظئر والميت مع الغاسل فهذا ما لم يأمر الله

به ولا رسوله بل هذا محرم، وإن عفى عن صاحبه وحسب صاحبه أن يعفي عنه؛ لاجتهاده وحسن قصده.

أما كونه يحمد على ذلك ويجعل هذا أفضل المقامات فليس الأمر كذلك، وكونه مجردا عن هواه ليس مسوغا له أن يستسلم لكل ما يفعل به.

ثم يقال الأمور مع هذا نوعان: أحدهما أن يفعل به بغير اختياره كما يحمل الإنسان ولا يمكنه الامتناع، وكما تضجع المرأة قهرا وتوطأ فهذا لا إثم فيه باتفاق العلماء. وإما أن يكره بالإكراه الشرعي حتى يفعل، فهذا أيضا معفو عنه في الأفعال عند الجمهور، وهو أصح الروايتين عن أحمد لقوله تعالى { ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم }.

وأما إذا لم يكره الإكراه الشرعي فاستسلامه للفعل المطلق الذي لا يعرف أخير هو أم شر، ليس هو مأمورا به وإن جرى على يده خرق عادة أو لم يجر فليس هو مأمورا أن يفعل إلا ما هو خير عند الله ورسوله.

قيل: هذا السؤال صحيح وحقيقة الأمر أن السالكين إذا وصلوا إلى هذا المقام فبحسن قصدهم وتسليمهم وخضوعهم لربهم وطلبهم منه أن يختار لهم ما هو الأصلح إذا استعملوا في أمر وهم لا يعرفون حكمه في الشرع رجوا أن يكون خيرا؛ لأن معرفتهم بحكمه قد تتعذر عليهم،

والإنسان غير عالم في كل حال بما هو الأصلح له في دينه وبما هو رضا الله ورسوله فيبقى حالهم حال المستخير لله فيما لم يعلم عاقبته إذا قال: { اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر؛ وتعلم ولا أعلم؛ وأنت علام

الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به {.

فإذا استخار الله كان ما شرح له صدره وتيسر له من الأمور هو الذي اختاره الله له. إذ لم يكن معه دليل شرعي على أن عين هذا الفعل هو مأمور به في هذه الحال فإن الأدلة الشرعية إنما تأمر بأمر مطلق عام لا بعين كل فعل من كل فاعل إذ كان هذا ممتنعاً؛ وإن كان ذلك المعين يمكن إدراجه تحت بعض خطاب الشارع العام؛ إذا كانت الأفراد المعينة داخلة تحت الأمر العام الكلي؛ لكن لا يقدر كل أحد على استحضار هذا ولا على استحضار أنواع الخطاب.

ولهذا كان الفقهاء يعدلون إلى القياس عند خفاء ذلك عليهم. ثم القياس أيضاً قد لا يحصل في كل واقعة فقد يخفى على الأئمة المجتهدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان دخول الواقعة المعينة تحت خطاب عام أو اعتبارها بنظير لها فلا يعرف لها أصل ولا نظير. هذا مع كثرة نظرهم في خطاب الشارع ومعرفة معانيه ودلالته على الأحكام. فكيف بمن لم يكن كذلك؟

ثم السالك ليس قصده معرفة الحلال من الحرام؛ بل مقصوده أن هذا الفعل المعين خير من هذا وهذا خير من هذا وأيهما أحب إلى الله في حقه في تلك الحال.

وهذا باب واسع لا يحيط به إلا الله ولكل سالك حال تخصصه قد يؤمر فيها بما ينهى عنه غيره ويؤمر في حال بما ينهى عنه في حال آخر.

فقالوا: نحن نفعل الخير بحسب الإمكان وهو فعل ما علمنا أنا أمرنا به ونترك أصل الشر وهو هوى النفس ونلجأ إلى الله فيما سوى ذلك أن يوفقنا لما هو أحب إليه وأرضى له؛ فما استعملنا فيه رجونا أن يكون من هذا الباب؛ ثم إن أصبنا فلنا أجران وإلا فلنا أجر وخطونا محطوط عنا فهذا هذا.

وحينئذ فمن قدر أنه علم المشروع وفعله فهو أفضل من هذا، ولكن كثير ممن يعلم المشروع لا يفعله ولا يقصد أحب الأمور إلى الله، وكثير منهم يفعله بشوب من الهوى فيبقى هذا يفعل المشروع بهوى، وهذا يترك ما لم يعلم أنه مشروع بلا هوى. فهذا نقص في العلم، وذاك نقص في العمل؛ إذ العمل بهوى النفس نقص في العمل ولو كان المفعول واجبا.

فيقال: إن تاب صاحب الهوى من هواه كان أرفع بعلمه وإن لم يتب فله نصيب من عالم السوء.

ولهذا تشاجر رجلان من المتقدمين عام الحكمين في مثل هذا. فقال أحدهما لصاحبه: إنما مثلك مثل الكلب؛ إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. وقال الآخر: أنت كالحمار يحمل أسفارا؛ فهذا أحسن قصدا وأقوى علما.

ولهذا تجد أصحاب حسن القصد إنما يعيبون على هؤلاء اتباع الهوى وحب الدنيا والرئاسة، وأهل العلم يعيبون على أولئك نقص علمهم بالشرع، وعدولهم عن الأمر والنهي فهذا هذا.

والله هو المسئول أن يهدينا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وقد قال بعض (أهل الفقه والزهد): من الناس من سلك الشريعة
ومنهم من سلك الحقيقة. ولعله أراد هؤلاء وهؤلاء؛ فإن هؤلاء
يرجحون بما ييسره الله،

مع حسن القصد واتباع الأمر والنهي المعلوم لهم مع خفاء الأدلة
الشرعية في ذلك المتيسر لهم وهؤلاء يرححون بالأدلة الشرعية من
الظواهر والأقيسة وأخبار الأحاد وأقوال العلماء مع خفاء الأمر
المتيسر لهم.

و أيضا فهؤلاء قد يشهدون ما في ذلك الفعل المقدور من المصلحة
والخير فيرجحونه بحكم الإيمان وإن لم يعرفوا دليلا من النص على
حسنه وأولئك إنما يرححون بالنصوص وما استنبط منها. فهؤلاء
لهم القرآن وهؤلاء لهم الإيمان.

وسبب هذا أن كلا من الطائفتين خفي عليه ما مع الأخرى من
الحق، وكل من الطائفتين في طريقها حق وباطل. فأما المدعون
للحقيقة بدون مراعاة الأمر والنهي الشرعيين فهم ضالون؛ كالذين
يعرفون الأمر والنهي ولا يفعلون إلا ما يهوونه من الكبائر فإنهم
فساق. وهؤلاء وهؤلاء الذين قيل فيهم: "احذروا فتنة العالم الفاجر
والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون".

والحقيقة قد تكون قدرية وقد تكون ذوقية وقد تكون شرعية ولفظ
الشرع يتناول المبدل والمؤول والمنزل.

و المقصود هنا ذكر أهل الاستقامة من الطائفتين، والكلام على حال
أهل العبادة والإرادة الذين خرجوا عن الهوى وهو الفرق الطبيعي
وقاموا بما علموه من الفرق الشرعي. وبقي قسم ثالث " ليس لهم فيه
فرق طبيعي ولا عندهم فيه فرق شرعي فهو الذي جروا فيه مع
الفعل والقدر.

وأما من جرى مع الفرق الطبيعي إما عالماً بأنه عاص وهو العالم الفاجر أو محتجاً بالقدر أو بذوقه ووجده معرضاً عن الكتاب والسنة وهو العابد الجاهل فهذا خارج عن الصراط المستقيم.

وهذا مما يبين حال كمال حال الصحابة وأنهم خير قرون هذه الأمة؛ إذ كانوا في خلافة النبوة يقومون بالفروق الشرعية في جليل الأمور ودقيقها مع اتساع الأمر والواحد من المتأخرين قد يعجز عن معرفة الفروق الشرعية فيما يخصه كما أن الواحد من هؤلاء يتبع هواه في أمر قليل. فأولئك مع عظيم ما دخلوا فيه من الأمر والنهي لهم العلم الذي يميزون به بين الحسنات والسيئات ولهم القصد الحسن الذي يفعلون به الحسنات. والكثير من المتأخرين العالمين والعابدين يفوت أحدهم العلم في كثير من الحسنات والسيئات حتى يظن السيئة حسنة وبالعكس، أو يفوته القصد في كثير من الأعمال حتى يتبع هواه فيما وضح له من الأمر والنهي.

فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذا لعمرى إذا كان عند العالم ما هو أمر الشارع ونهيه حقيقة وعند العابد حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة فأما من خلط الشرع المنزل بالمبدل والمؤول، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى فهؤلاء وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم.

وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. وحسن القصد من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه. والعلم الشرعي من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح فإن العلم قائد والعمل سائق، والنفس حرون فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها وإن ونى

سائقها لم تستقم لقائدها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حاد السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائد عن الطريق زائع عنه مع علمه به.

قال تعالى: { فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم } . هذا جاهل وهذا ظالم.
قال تعالى: { وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا } . مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم،

والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم. قال تعالى { إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب } .

قال أبو العالية: سألت أصحاب محمد فقالوا: كل من عصى الله فهو جاهل وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وقد روى الخلال عن أبي حيان التيمي قال: العلماء ثلاثة فعالم بالله ليس عالما بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله، وعالم بالله وبأمر الله.

فالعالم بالله الذي يخشاه والعالم بأمر الله الذي يعرف أمره ونهيه.

قلت: والخشية تمنع اتباع الهوى، قال تعالى: { وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى } { فإن الجنة هي المأوى } .

والكمال في عدم الهوى وفي العلم، وذلك هو لخاتم الرسل الذي قال فيه: { والنجم إذا هوى } { ما ضل صاحبكم وما غوى } { وما ينطق عن الهوى } { إن هو إلا وحي يوحى } فنفى عنه الضلال والغى ووصفه بأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فنفى الهوى وأثبت العلم الكامل وهو الوحي فهذا كمال العلم وذاك كمال القصد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

ووصف أعداءه بصد هذين فقال تعالى: { إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى } فالكمال المطلق للإنسان هو تكميل العبودية لله علما وقصدا.

قال تعالى: { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }.

وقال تعالى: { وأنه لما قام عبد الله يدعوه }.

وقال تعالى فيما حكاه عن إبليس: { قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين } { إلا عبادك منهم المخلصين } . وقال: { إن عبادي ليس لك عليهم سلطان } وقال تعالى: { كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين } وقال تعالى: { إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون } . و " عبادته " تعالى هي طاعة أمره، وأمره لنا ما بلغه الرسول عنه؛ فالكمال في كمال طاعة الله ورسوله باطنا وظاهرا ومن كان لم يعرف ما أمر الله به فترك هواه واستسلم للقدر أو اجتهد في الطاعة فأخطأ، فعل الأمور به إلى ما اعتقده مأمورا به أو تعارضت عنده الأدلة فتوقف عما هو طاعة في نفس الأمر، فهو لاء مطيعون لله يثابون على ما أحسنوه من القصد لله واستفرغوه من وسعهم في طاعة الله وما عجزوا عن علمه فأخطئوه إلى غيره فمغفور لهم.

وهذا من أسباب فتن تقع بين الأمة فإن أقواما يقولون ويفعلون أمورا هم مجتهدون فيها وقد أخطئوا فتبلغ أقواما يظنون أنهم تعمدوا فيها الذنب أو يظنون أنهم لا يعذرون بالخطأ وهم أيضا مجتهدون مخطئون فيكون هذا مجتهدا مخطئا في فعله وهذا مجتهدا مخطئا في إنكاره والكل مغفور لهم. وقد يكون أحدهما مذنبا كما قد يكونان جميعا مذنبين. وخير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة.

والواحد من هؤلاء قد يعطى تصرفاً بالأمر والنهي. فيولي ويعزل ويعطي ويمنع فيظن الظان أن هذا كمال وإنما يكون كمالاً إذا كان موافقاً للأمر فيكون طاعة لله وإلا فهو من جنس الملك وأفعال الملك: إما ذنب وإما عفو وإما طاعة.

فالخلفاء الراشدون أفعالهم طاعة وعبادة وهم أتباع العبد الرسول ، وهي طريق السابقين المقربين. وأما طريق الملوك العادلين فأما طاعة وإما عفو؛ وهي طريقة الأنبياء الملوك؛ وطريقة الأبرار أصحاب اليمين.

وأما طريقة الملوك الظالمين: فتتضمن المعاصي؛ وهي طريقة الظالمين لأنفسهم. قال تعالى: { ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير } فلا يخرج الواحد من المؤمنين عن أن يكون من أحد هذه الأصناف: إما ظالم لنفسه وإما مقتصد وإما سابق بالخيرات.

و خوارق العادات إما مكاشفة وهي من جنس العلم الخارق وإما تصرف وهي من جنس القدرة الخارقة؛ وأصحابها لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة.

[عدل] فصل

وقد تفرق الناس في هذا المقام الذي هو غاية مطالب العباد، فطائفة من الفلاسفة ونحوهم يظنون أن كمال النفس في مجرد العلم، ويجعلون العلم الذي به يكمل ما يعرفونه هم من علم ما بعد الطبيعة، ويجعلون العبادات رياضة لأخلاق النفس حتى تستعد للعلم فتصير النفس عالماً معقولاً موازياً للعالم الموجود.

[عدل] الفلاسفة ضالون كافرون من وجوه

وهؤلاء ضالون، بل كافرون من وجوه: منها:

الأول: أنهم اعتقدوا الكمال في مجرد العلم، كما اعتقد جهنم،
والصالحين، والأشعري في المشهور من قوله، وأكثر أتباعه: أن
الإيمان مجرد العلم.

لكن المتفلسفة أسوأ حالا من الجهمية، فإن الجهمية يجعلون الإيمان
هو العلم بالله، وأولئك يجعلون كمال النفس في أن تعلم الوجود
المطلق من حيث هو وجود، والمطلق بشرط الإطلاق إنما يكون في
الأذهان لا في الأعيان، والمطلق لا بشرط لا يوجد أيضا في
الخارج إلا معيناً، وإن علموا الوجود الكلي المنقسم إلى واجب
وممكن، فليس لمعلوم علمهم وجود في الخارج.

وهكذا من تصوف وتأله على طريقتهم كابن عربي وابن سبعين
ونحوهما.

وأیضا فإن الجهمية مقرون بالرسول وبما جاؤوا به من حيث الجملة،
مقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، وغير ذلك
مما جاءت به الرسل، بخلاف المتفلسفة.

وبالجملة فكمال النفس ليس في مجرد العلم، بل لا بد مع العلم بالله
من محبته وعبادته والإنابة إليه، فهذا عمل النفس وإرادتها، وذاك
علمها ومعرفتها.

الوجه الثاني: أنهم ظنوا أن العلم الذي تكمل به النفس هو علمهم،
وكثير منه جهل لا علم.

الثالث: أنهم لم يعرفوا العلم الإلهي الذي جاءت به الرسل، وهو العلم الأعلى الذي تكمل به النفس، مع العمل بموجبه.

الرابع: أنهم يرون أنه إذا حصل لهم ذاك العلم سقطت عنهم واجبات الشرع وأبيحت لهم محرماته، وهذه طريقة الباطنية من الإسماعيلية وغيرهم، مثل أبي يعقوب السجستاني صاحب الأقاليد الملكوتية وأمثاله، وطريقة من وافقهم من ملاحدة الصوفية الذين يتأولون قوله: { واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } إنك تعمل حتى يحصل لك العلم، فإذا حصل العلم سقط عنك العمل.

وقد قيل للجنيد: إن قوما يقولون: إنهم يصلون من طريق البر إلى أن تسقط عنهم الفرائض وتباح لهم المحارم، أو نحو هذا الكلام. فقال: الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر أحسن حالا من هذا.

ومن هؤلاء من يكون طلبه للمكاشفة ونحوها من العلم أعظم من طلبه لما فرض الله عليه، ويقول في دعائه: اللهم إني أسألك العصمة في الحركات والسكنات، والخطرات والإرادات والكلمات، من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب.

وأصل المتفلسفة أن الفلسفة التي هي الكمال عندهم هي التشبه بالإله على قدر الطاقة، وهم يقولون: إن حركات الأفلاك لأجل التشبه بالأول.

وعلى هذا بنى أبو حامد كتابه في شرح الأسماء الحسنى، وتخلق العبد بأخلاق الله، وأنكر ذلك عليه المازري وغيره، وقالوا: ليس لله خلق يتخلق به العبد.

وعدل أبو الحكم بن برجان عن لفظ التخلق إلى لفظ التعبد.

وعلى هذا الأصل الفلسفي بنى ابن عربي معنى ولي الله، وأنه المتشبه به المتخلق بأخلاقه، كما يفسر أبو حامد التقرب من الله بالتشبه به، وابن عربي ونحوه يجعلون الولي أفضل من النبي بناء على أصولهم الفلسفية الاتحادية.

وطائفة أخرى عندهم أن الكمال في القدرة والسلطان والتصرف في الوجود، بنفاذ الأمر والنهي، إما بالملك والولاية الظاهرة، وإما بالباطن، وتكون عبادتهم ومجاهدتهم كذلك.

وكثير من هؤلاء يدخل في الشرك والسحر، فيعبد الكواكب والأصنام لتعينه الشياطين على مقاصده، وهؤلاء أضل وأجهل من الذين قبلهم.

وعامة من يعبد الله لطلب خوارق العادات يكون فيه نصيب من هذا. ولهذا كان منهم من يموت فاسقا أو مسلوبا، وكلهم ضلال جهال.

وطائفة تجعل الكمال في مجموع الأمرين، فيدخلون في أقوال وأعمال من الشرك والسحر، ليستعينوا بالشياطين على ما يطلبونه من الإخبار بالأمور الغائبة، وعلى ما ينفذ به تصرفهم في العالم.

وأما الحق المبين فهو أن كمال الإنسان في أن يعبد الله علما وعملا، كما أمره ربه. وهؤلاء هم عباد الله، وهم المؤمنون والمسلمون، وهم أولياء الله المتقون، وحزب الله المفلحون، وجند الله الغالبون، وهم أهل العلم النافع، والعمل الصالح، وهم الذين زكوا نفوسهم وكملوها. كملوا القوة النظرية العلمية، والقوة الإرادية العملية.

كما قال تعالى: { واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار }. وقال تعالى: { والنجم إذا هوى * ما ضل

صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي
يوحى {.

وقال تعالى: { اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا الضالين }، وقال تعالى: { فإما يأتينكم
مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى } . وقال تعالى: {
أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون }، وقال تعالى: {
إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه }، وقال تعالى: { إلا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر
}.

(هذا ما وجد في الأصل).

وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم تسليما كثيرا.

كتبه محمد بن أحمد بن علي الخطيب بقرية بييلا في ثاني عشر
جمادى الأولى سنة أربع وسبعمائة)